ساحل الغواية

في الصحراء موج أقل

رواية

محمد رفيع

ساحل الغوايـة

في الصحراء موج أقل

ساحل الغواية

في الصحراء موج أقل

محمد رفيع

الطبعة الأولى/ ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة
تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥
WWW.elainpublishing.com

الهيئة الاستشارية للدار
أحمد شوقي
خالد فهمي
فتح الله الشيخ
فيصل يونس
مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
فاطمة البودي

لوحة الغلاف للفنان: يحيى المهدى

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/١٥٥٢٦
I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 175 - 4

ساحل الغواية

في الصحراء موج أقل

رواية

محمد رفيع

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

رفيع، محمد.

ساحل الغواية: في الصحراء موج أقل: رواية/ محمد رفيع.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٧٥ ٤

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٥٥٢٦ / ٢٠١١

الإهـــداء

إلى كل من ماتوا في قبلة الأحرار،

وإلى الميدان الذي أعادني إليّ..

أعادني خَجلٌ من أنني تركتهم يموتون وحدهم

وعشت...

مفتتح

لا أعرف الصحراء،
مهما زرت هاجسها،
وفي الصحراء قال الغيب لي:
اكتب!
فقلت: على السراب كتابة أخرى
فقال: اكتب ليخضر السراب
فقلت: ينقصني الغياب
وقلت: لم أتعلم الكلمات بعد
فقال لي: اكتب لتعرفها
وتعرف أين كنت، وأين أنت
وكيف جئت، ومن تكون غدًا،
ضع اسمك في يدي واكتب
لتعرف من أنا، واذهب غمامًا
في المدى
فكتبت: من يكتب حكايته يرث
أرض الكلام، ويملك المعنى تمامًا.

محمود درويش

قبل أعوام

1

مازالت سلمى تذكر ذلك اليوم المخيف، وترتعد ذاكرتها عند تفاصيله المنقوشة داخل عقلها، كتعويذة قديمة لا فكاك من لعنتها. مرّ ما مرّ من السنين؛ وتلاحقت الأحداث كموجٍ هادر يرمي بزبده على اليابسة، لكن هناك شيئًا سرمديًّا وسط هذه الحوادث لا يُمحى، كأنه زرقة البحر. يومها دقّت ساعة العمر الرابعة عشرة، وأخذتها أُمها إلى تلك السوق الواسعة لتبتاع زاد البيت.

ازدحمت السوق بالمارة، وامتلأت بالصخب حتى حوافها. نساء قاعدات هناك يرتّقن الشباك في دأب، ويرتّلن تراتيل قديمة عن البحر البعيد وقسوته.

قد إيش يا بحر تاكل وترمى مع زبدك أرامل
وقت إيش يا بحر تشبع ولا تسطر قلوبنا مواجع

جراح القلب تراصت فوق بعضها كسطور نكتب عليها مواجعنا.

لا تكاد تفهم سلمى المراد، فلم تترامَ إلى سمعها تلك المتون من قبل.

اقتربت الفتاة من عجوز لا ترتّل مع الأخريات. لعلّ سلمى وجدت أمانها في الصمت. ضحكت العجوز بغير صوت وقالت مباغتة:

يا بنيتي إوعاك تتعلمي.. لتتألمي

سألت سلمى بدهشة طفل يكتشف العالم: كيف يا خالة؟

قالت العجوز وكأنها تحدث نفسها: شباكنا تافهة قدام شباكه... إوعاك تفكري إن الصيد صيدنا، الصيد صيده هوه.

تساءلت كل ملامح سلمى عن الذي تتحدث عنه السيدة، لكنها لم تجب بل رتّلت مع الأخريات: "وقت إيش يا بحر تشبع...

ابتعدت سلمى وكأنها تهرب من الغناء، كأن الغناء يتسلل تحت ملابسها ويجثم على صدرها العاري.

نظرت حولها، واطمأنت قليلاً عندما وجدت أمها واقفة عند بائع السمك الجاف، المعلق في خطافات على واجهة المحل؛ حتى تراه الشمس والعيون. أخذت نفسًا عميقًا، وانطلقت وسط الجموع تروى ظمأها. كانت عيناها الصغيرتان تبتلعان ما حولها في شغف حقيقي.

هناك رجل يبيع خرافًا قادمة من الجنوب؛ لا فراء لها، لو لم تقترب منه جيدًا، لظننته يبيع كلابًا بنية اللون من شدة نحافتها. الرجل ينادى بصوت رخيم هادئ، وهو يقف بجوارها مقطوع الذراع.

تحدق فيه سلمى؛ ولا تنتبه إلا وأمها تأخذ ذراعها وتسير. قالت الأم دون أن تلتفت إليها؛ إنه كان صيّادًا لا يشق له موج، وعندما مزّق القرش جسده، قرر ألا يتعامل إلا مع الخراف. يسافر ليجلبها من السودان جنوبًا ويبيعها هنا.

غير أن كل هذا الصخب اليومي؛ لم يكن هو مصدر خوفها الذي ظلّ يجثم على صدرها لسنوات مديدة، بل كانت تلك السيدة ذات الألوان الزاهية في ملبسها، الجالسة على صدفة سلحفاة قديمة؛ أكلت الشمس ألوانها، كحيلة العينين، مشمرة الأكمام، كما لم ترَ البنت فيمن حولها من النساء، وفي قدميها البضتين خلخال ضيق ملتصق بساقيها كأنه يمتصهما.

أحست سلمى بشيء من الجلال يتسرب إلى جسدها، شعور خفي امتدّ إلى أطرافها، وأحست بفراغ في بطنها لا تشعر به، إلا إذا اضطرب فؤادها. اقتربت سلمى من السيدة، لم تكن إلا ضاربة ودع بدوية لا تفضي ملامحها لشيء.

إنها محض قارئة ودع عادية يا سلمى، فما كل هذا الدبيب الذي يسري في عظامك، وما هذا الهواء البارد المتسرب تحت رئتيك؟

عساه شيئًا فلنقترب قليلاً. هكذا حدثها ضميرها فاقتربت. لاحظت السيدة وجودها؛ فاتسعت عيناها ترحيبًا أو دهشة. قالت ما معناه: "إكرامًا لعينيك سأرمي أنا بياضك" لكن سلمى لم تعد تذكر الكلمات بدقة. تقدمت وكأن شيئًا خفيًا شدّها من دمها، ونظرت إلى قطعة الجلد ذات اللون البني المحروق والمفروشة أمام السيدة لتجد الودعات المتلألآت في الشمس بألوانهن العسلية نائمات في هدوء.

مدّت السيدة يديها ورفعت أطراف الجلد، لتتجمع الودعات بداخله؛ ضمت حوافه حتى شابه الجوال، ومدته ناحية البنت، فقبضت سلمى على حوافه دون تفكير، واستجابت لحركات السيدة، فهزت الجلد وبداخله الودعات تصطك. كم شعرت سلمى وهى تهز الودعات أن أعضاءها الداخلية تهتز، كما لو أن كبدها ومعدتها وطحالها يهتزون في فراغ جسدها المظلم. وعلى الرغم من هذه الأحاسيس ذات الألم الناعم، لم تستطع سلمى التوقف عن الهز إلا عندما قالت السيدة: كفى.

وضعت سلمى حملها على الأرض، وأنفاسها مضطربة كأنها عائدة من سفر. مدت السيدة يدها الغارقة في أساور الذهب لتفتح صرة الجلد. نظرت سلمى إلى الودعات وكأنها تطمئن على وجودهن. كانت الودعات مستلقيات على ظهورهن، فاتحات شقوقهن للشمس إلا واحدة، مستلقية على وجهها تاركة ظهرها الملون للعيان. ابتسمت السيدة وقالت: "النصيب عند هادي"

وما إن مدت يدها نحو الودعة المقلوبة، حتى شدتها كالملسوعة. حدقت سلمى في وجهها كي تعرف منه شيئًا، فلم تلمح إلا ملامح الألم.

نقّلت ناظريها المتسائلين بين الوجه المتألم والودعة القابعة في وداعة، وبنهاية هذه اللحظة، استيقظت على صوت السيدة يدعوها إلى الابتعاد.

لم تفهم البنت شيئًا، لكنها قامت من قرفصائها واستدارت إلى الخلف في ذعر. صوت السيدة أتاها من خلفٍ ينادي باسمها. ارتعدت سلمى وترددت كثيرًا قبل أن تعود إلى العرافة. مدت يدها كما أشارت العرافة إلى

الودعة حاملة النصيب. في كل مرة، تتذكر سلمى هذه الحادثة، لا تستطيع أن تتذكر إن كانت هي التي أفصحت عن اسمها لتلك السيدة، أم كيف نادتها باسمها؟ لكنها تذكر جيدًا أن السيدة قالت لها: "لو حسيتي بشيء يحرق سيبيها لحالها"؟

مدت البنت يدها في توجس، وهي تشعر بسطوة الأوامر التي تصدر من فم العرّافة، لكنها في سهولة قلبت الودعة دون أن تصاب كما أصيبت السيدة.

مرت برهة وربما برهتان قبل أن تتحرك العرافة من مكانها، والودعة قابعة وسط الودعات. أشاحت السيدة بالودع الآخر بعيدًا، و لم تبقَ إلا تلك القابضة على النصيب.

لاحظت سلمى أن ثمة سائلاً أزرق اللون يتسرب من الودعة، وينساب ببطء على فراش الجلد المتآكل. في هذه اللحظة، أحست بيد تقبض على كتفها. نظرت إلى أعلى، فوجدت والدتها وعلى وجهها غضب شديد. شدتها من ذراعها، فنظرت سلمى نحو ضاربة الودع لتجدها كالسكارى يغيبها الذهول. شدت الأم الصبية وذهبت بها، لكن العرافة صرخت: اتركيها.

ترددت الكلمة في الخلاء وعادت تصطدم بالآذان. انسلت سلمى من قبضة أمها، وجرت نحو ضاربة الودع؛ لتجدها تتصبب عرقًا. مدت العرافة يدها من فوهة ثوبها وأخرجت زجاجة صغيرة في حجم الإصبع، ومن شدة انفعالها لم تلحظ أو لم تبال بأنها شدت يدها بسرعة، فقفز أحد نهديها إلى العراء.

مدت يدها إلى سلمى بالبرطمان الزجاجي القزم وقالت: "صبيه هنا"

أخذت سلمى الودعة وصبت ماءها الأزرق في الزجاجة، وهى تسمع صوت والدتها تعنفها من الخلف. تقدمت الأم لتشد شعر ابنتها – مضمرة أن تعلقها منه في البيت– وأسرعت خطاها حتى جابهت العرافة؛ فوجدت عرقها ينساب حتى نهدها المارق. لا تعرف الأم لماذا تلجمت عندما رأت النهد يتصبب عرقًا، وأشعة الغروب تصبغه بحمرتها. ظلت أم سلمى للحظة طويلة بلا حراك، وبعد أن تخطت فجأتها، نظرت إلى سلمى؛ فوجدتها وقد فرغت من صب السائل الأزرق الشفاف في الزجاجة الصغيرة، ثم مدت يدها نحو السيدة لتعطيها الزجاجة، لكن العرافة مدت يدها لتدفعه ناحيتها وقالت:

" سلمى... هذا لك، خذيه واحتمي بيه" شدّت يد أم سلمى شعرها في إشارة لها بألا تأخذ شيئًا. أضافت السيدة: هذا سم المضاجعة، لم يظهر في فم الودع إلا لجدة جدتي

ازداد شد أم سلمى لشعرها، حتى كادت تصرخ.

تابعت السيدة: "رشفة صغيرة منه تجعل جسدك مسممًا، إلا على من يحبه قلبك"

هنا لم تطق سلمى الشد، وقامت وراء أمها، فلحقت بهما السيدة بعدما وارت نهدها، وقالت في صوت خفيض: "لو ضاجعك غير اللي تحبين سيموت... سيموت".

لم تدرِ السيدة إلا ولطمة قوية تطيح بها على الرمال. لطمة قوية كأنها من رجل عتي، إلا أنها كانت من أم سلمى الغاضبة.

بقي شيء يا سلمى تبتسمين كلما تذكرتيه، كيف أخذت البرطمان الصغير من الأرض، ووضعتيه بين نهديك الصغيرين دون أن تشعر والدتك؟

لكن سلمى أبدًا لا تفصح.

2

طيلة أربعة عشر عامًا مرت، لم ترَ سلمى أمها بهذه القسوة قط. ما الذي فعلته أم سلمى مع هذه العرافة؟ وكيف حاربتها بتلك الجسارة؟ دار سؤال مشابه في عقل سلمى، وهي تسير خلف والدتها عائدة إلى البيت في ذلك اليوم.

لكن الذي لم تعرفه سلمى وتذكرته الأم في هذه اللحظة، أن واحدة من هؤلاء العرافات جاءت إلى ديارهم منذ عدة سنوات، وقعدت في السوق نفسها، وكشفت عن ساقيها، ورفعت صوتها بكلام خلع قلوب الناس وملأهم رعبًا.

في البدء، تحلق الرجال حولها؛ يمسحون بياض ساقيها بنظراتهم، ويلتهب خيالهم مع الجرأة التي نظرت بها إليهم، وتحلقت بعض النساء؛ وكانت كل واحدة تستهجن أن لحم السيدة معروض أمام الناس. لكن في

قرارة نفسها، تعقد مقارنة سريعة بين ما لديها، وبين الساقين العاريتين. فإن كانت المقارنة لصالحها صمتت وامتلأت دلالاً، ونظرت خلسة إلى أعين الرجال التي تكاد تخرج من محاجرها. أما إذا كانت المقارنة في غير صالحها؛ تأففت وأخرجت كلامًا كالسهام سبّت فيه العرافة وجنس الرجال أجمعين.

لكن هذه المشاعر المختلطة التي دارت في قلوب الناس، تحولت جميعها إلى شعور واحد هو الرعب، عندما بدأت ذات الساقين المرمريتين تستخدم شفتيها؛ لترمي الجمع بكلام ما سمعوا بمثله.

تحول الرعب إلي غيظ وغضب عام؛ فتحلقوا حولها وقتلوها. العجيب أنها تنبأت بموتها في هذه اللحظة؛ وقبل أن يتحلق حولها الناس حين قالت:

"اقتلوني يا ولادها، اقتلوني أدخل الجنة على أيديكم. اقتلوني وارحموا الزانية. ارحموا الزانية يا ولاد مثيلتها، ولمو لحمها المفروش على الرمل ارحموا اللى ضاجع الصبية في العرا والشمس. ظللوا عليه"

في هذه اللحظة، تجمع الناس وظلوا يحدقون في عيون بعضهم البعض، مستغربين كلامها.

لم تنزل أول عصا على رأسها إلا عندما قالت:

"لو ما ظللتموه ظللته الغردجية ليوم الدين. وأنتم يا ملاعين تبنون على قبر الزانية جامع تصلون فيه"

ما إن أتمت العرافة كلامها، حتى انهالت عليها العصي والأرجل؛

فانفجرت دماؤها. شعور وحشي داهم الناس، وجعلهم يضربونها بلا رحمة، واشتركوا في قتلها جميعًا. كان ما قالته كفيلاً بطردها ورميها بالنعال، لكنهم تحلقوا حولها ومنعوها من الهرب، وكالوا لها الضربات، وسدوا عليها الطرق، وتسابقوا على إيلامها حتى ترنحت وارتمت على الأرض. والروح تكاد تنسحب منها، في الوقت ذاته توقف بعض المارة؛ وكانوا يحملون امرأة هدّها الإعياء، أشارت إليها العرافة أن تقترب. فتسمّر الناس لا يدرون ما منعهم من الاعتراض. ذهبت المريضة؛ فأشارت العرافة بأن تقرب أذنها، وتمتمت ببعض الكلمات في أذن السيدة، ثم فارقت الحياة. لم يدر الناس تفسير كلامها إلا بعدها بسنوات. حين عرفوا من الذي ضاجع الفتاة في العراء، وما قصة هذا القبر الذي قالت عنه.

وصلت أم سلمى إلى الدار قبل أن تكتمل الذكريات في عقلها. كل ما دار بخلدها أنها حمت سلمى من أن تحمل نبوءة أخرى، أو خدعة من خدَعهن الجهنمية.

3

تقافز الخبر على الألسنة، وعلمت البلدة كلها بسم المضاجعة هذا، لكن أم سلمى كانت تنفي أن تكون ابنتها أخذت هذا الشيء من قارئة الملاعين -التي هبطت عليهم من نجم الشؤم- أحيانًا كانت تزيد من عندها أن السيدة أخذت سمها الأزرق وفرت من لطماتها، وأنها جرت صوب البحر، والودعات في جلدها الملفوف، وسمها بين أسنانها، وعلى وجهها رسم الرعب ملامحه.

حتى سلمى نفسها تبنّت تلك الكذبات، وأخفت عن الجميع كذبها الذي أنضجته حتى يعود "مهدي" من جوف الجبل.

لم يكن أمام الناس إلا التصديق المتشكك؛ فلا العرافة عادت إلى تلك الناحية، ولا الزجاجة الزرقاء ظهرت في يد البنت.

كتمت سلمى خبر سائلها الأزرق، وشعرت بفرح باطني من كونها

تخبئ سرًّا عن الجميع، وفي الحقيقة أنها ادخرت سرها وأنضجته في قرارها حتى يعود مهدي حبيبها.

امتزج العشق داخلها بالفخر؛ فمهدي هو أول من درس في الأزهر من أولاد الصيادين، أرسله أبوه للدراسة في القاهرة، فقطن عند عمه الأصغر –الذي خطفته المدينة منذ زمن– هكذا يقول الناس عندما تأتي سيرته. في اليوم الذي سافر فيه مهدي؛ ودعته القرية كأنها تودع المحمل إلى أرض الحجاز. وعاد الناس من توديعه وداخلهم يقين بأنه لن يعود؛ وستبتلعه القاهرة كالدوامة، لكنه عاد بعد عامين،وعندما حدث ما حدث لأبيه، لم يعد مهدي إلى الدراسة مرة أخرى، وصارت القرية تعده ذا علم وفقه.و مهما قال مهدي الحقيقة للناس لا يسمع أحد منهم ولا يصدق،إلا أن ابنًا من أبنائهم أتم دراسته في الأزهر، وعاد لهم بنفحات دينية ترد لهم أرواحهم.

تذكر سلمى كلمات والدتها له عندما طأطأ الرأس متواضعًا وقال إنه ترك الدراسة ليكون لأبيه عينًا، ردت عليه والدة سلمى وقالت: "يكفيك إنك رضعت من الجامع الكبير سنتين" وردت سلمى ببسمة من شفتيها وخفقة في القلب.

لم تدرك سلمى حلاوة الدنيا إلا عندما أحبت مهدي وعشقته، وصارت تحس باليتم في غيابه وتعد الشموس التي تطلع والليالي التي أسود وجهها من القسوة حتى يعود. في غيابه عنها تنتظره حتى تظن أن جلبابها كفن وهو قيامتها؛ تنتظره حتى كأن الدنيا سجن ضيق وصدره

براح، لكن ثمة شيئًا كانت تخشاه وهو أن يغضب من سماعها وتصديقها لإحدى العرافات؛ فمهدي يخاف الله وحدوده وقد بلغ من شدة ورعه مبلغًا كبيرًا، أحيانًا تخشى عليه منه، وأحيانًا تشعر بالإثم، فهل لأحد أن يخشى من الانغماس في الورع ؟

ربما كانت تخشى من أن الورع الزائد قد يقلل من مباهج الدنيا. أتراه سيغضب ويخاصمها شهرين، كما فعل قبل ذلك؟ لكنها لا تطيق خصامه حتى لحظتيْن. ومضت تعاتبه في خيالها: "كيف استطعت ذلك، شهرين كاملين، لماذا؟ ألأنك تصرخ من خشية الله، ويدق قلبك بالشهادة مع كل ضربة تبقر بها قلب الجبل كما كنت تحكي؟ جوف المغارة المظلم يلهيك عني، وكان أحرى لو يلهمك شوقًا على شوقٍ؟ يالقسوة الرجال وغرابتهم"

حكت أمها أنها تزوجت عن تسع سنين، و لم تكن قد بلغت بعد، لكنها ظلت في بيت زوجها حتى تفجرت ينابيع الأنوثة فيها.

قالت إنه لم يمسسها طيلة تلك السنين، وعندما كانت تحكي لنسوة الجيران في غير وجود سلمى – غير عالمة بأن سلمى خلف الباب تسمع – كانت تقول إنها كم باتت ليال طوال، وهى دامعة ناظرة إلى السماء تنتظر أن تحل فيها بركة الخصب. تتحسس جسدها كل يوم؛ لتعرف كم اقتربت من أرض الأنوثة، حتى جاءتها البشارة من تحتها.

أما سلمى فقد انتظرت، وانكوت، ليس بنار الشوق وحدها، بل بما عانته من سر يكبر داخلها كجنين يكاد أن يولد.

انتظرت سلمى غروب الشمس؛ حيث يأتي مهدي مسافرًا على ناقته من الجنوب. يدخل القرية عند العصر ويأتي لمقابلتها عند الغروب. هكذا عوّدها حتى صار الغروب لديها لا يحمل مسحة الحزن التي يمسح بها على القلوب، بل صار يملؤها أملاً وشوقًا. تأكدت سلمى أن أمها منشغلة بالخبيز.. في صحن الدار دخلت إلى غرفتها وأغلقت الباب، عطرت سلمى جسدها وحنّت قدميها بالحناء وتركتهما يجفان في الهواء، مشطت شعرها وكحلت عينيها فبدا جمالها البدوي مبهرًا، أنفها الدقيق وعيناها الواسعتان هما عنوان جمالها، أما فمها الطازج فبدا كقلب نائم فوق ذقن صغير، والذقن مزين بخطوط خضراء لوشم متقن.

خارج البيت الجو هادئ والغروب يقترب، جرو صغير يلعب في الرمال ويقافز ظله، عند ركن الحائط هبت نسمة خفيفة؛ جعلت كومة من القش والورق اليابس ترقص فى الهواء فى تكوين كوني صغير. يدور في التفاف يكوّن أشكالاً ويعود ليتبعثر إذا النسمة رحلت، وبعيدًا عن الكون الصغير الذى تكوّن عند الحائط وبالتحديد عند الباب المنتظر، خرجت سلمى بعد أن وضعت شالها وغطت وجهها باليشمك وأغلقت باب الدار ومشت في تؤدة كاذبة. فقد كان قلبها يدق أسرع من خطاها ورعشة باطنية تسري في جسدها والنهد نافر تحت الثوب لايعرف الانتظار.

تمتمت سلمى في سرها:

كنت فين يا حلو غايب

عن عيوني من زمان

سرقتك الصحبة مني

وحرمت عيني المنام
فسألت الصاري عنك
خبرتني بالرحيل
كيف أعيش من بعدك إنت
بعدك إنت يا جميل.

ولما أتمت أبياتها، كان الشط على بعد خطوات منها في هذا المكان البعيد عن عيون القرية والذي اعتادت أن تقابل حبيبها عنده. كان الغروب في الأفق يحدث، والبحر الذي لا يبتلع الشمس هادىء الصفحة، تزركش وجهه نسمة خفيفة وبعض الحركات من أسماك –في أيامها الأولى– تجد في السطح ملعبًا لها والرمال الناعمة زركشت وجهها بآثار الكابوريا الصغيرة والنوارس التي تهبط على الأرض في تكاسل، كان مهدي مستلقيًا على الرمال الرطبة يستمع إلى لحن الموج الأبدي مغمض العينين عاري الصدر مستمتعًا برزاز الموج الخفيف على وجهه وصدره الحار بحرارة الشوق، وإذا بقدم ناعمة تصعد على صدره، لم يفتح مهدي عينيه بل تسربت رائحة الحناء إلى أنفه فابتسم وملأ صدره بالهواء ليحتمل ثقل سلمى، وهي تتمادى في ثقل خطواتها على صدره، وتعبث بأطراف أصابعها في شعر بطنه، مرت برهتين قبل أن تنزل سلمى ليطلق مهدي زفرة طويلة ويقوم من مجلسه فاتحًا عينيه على جمالها وهي جالسة بجواره. كان ذلك هو عناقهما الأول وتقليدهما السري الذي تختبر فيه سلمى رجلها واحتماله وتمسد جسده بقدمها وهو مستسلم في

وداعة. في كل مرة يحدث هذا تزيد سلمى من وقت وقوفها على صدره وتنزل عنه بدلال أكثر. مرت لحظة بهما لم يمتلك أحد فيهما كلامًا يقوله بل عينين جائعتين تلتمان ملامح وجه الآخر، قالت العيون كلامًا وترددت الأنفاس في صدرين ذابا من العشق وقلبين اختلجا ولم يهدأ إيقاعهما إلا عندما تقاربا في عناق طويل، كانا القلبان الحبيسان يطرقان بكل قوة جدار محبسيهما ويعلن كلّ واحد عن نفسه في غيابات الصدر. مرّ العناق وكأنه لم يمر، فالشوق زاد ولم ينتقص ذلك العناق منه شيئًا.

ابتسم مهدي وسمع من سلمى عن سم المضاجعة. وحين انتهت من حكايتها، أخرجت الزجاجة من جلبابها لتريه إياها. أمسك مهدي الزجاجة الزرقاء وتفحصها قليلاً، ثم سألها إن كانت تصدق أن ذلك حقيقي، فخطفت منه الزجاجة وهمّت بأن تشربها ليكون لها وحدها؛ ولتبرهن له أنها تصدق العرافة في كل ما قالته. ضحك مهدي ومنعها من أن تشرب ذلك الشيء؛ فتصنعت الغضب.

حكت سلمى في تلك الليلة أيضا عن صديقتها "مدينة"، وعن حبها لفتى من القرية، لا هو بابن عمها ولا بقريبها. كانت الحكاية تشبه حكايتهما تمامًا، واستبد بمهدي القلق عندما حكت أيضًا عن حمود ابن عم "مدينة" لم تدر سلمى أن ما حكته في تلك الليلة سيأخذ حبيبها لطريق غير الذي تمنت؛ طريق لا رجعة فيه.

الآن

4

عندما أعيا الناس سؤالهم لسلمى وأمها عن الزجاجة الزرقاء، ولما طال إنكارهما لذلك السم ومضت الشهور دون أن يحدث شيء، تناسى الناس الحكاية حتى أن سلمى وضعته في صندوق ملابسها وتركت الأيام تخفيه وكأنها تعتقه فيكون أكثر تأثيرًا ويجعلها أصعب منالاً إلى أن جاء اليوم الذي استيقظت فيه سلمى على نداء جارة لها تقول إن سم المضاجعة يباع في السوق، وإن هناك زجاجات زرقاء كثيرة تباع للفتيات. فتحت سلمى نافذتها وكان شعور بخواء يملأ جوفها حين سمعت هذا الكلام، فأشارت إلى الجارة أن تخفض صوتها. وبحركة صامتة فهمت الجارة مرادها، فدارتْ حول البيت وتوجهت نحو الباب.

تقلبت سلمى على الفراش حتى سقطت على الأرض بخفة، وأخرجت صندوق العروس من أسفل سريرها. فتحته بسرعة، ومدت يدها وسط

الثياب تبحث يمينًا ويسارًا؛ إلى أن قبضت يدها على الزجاجة الزرقاء فأخرجتها بسرعة، وفتحت غطاءها، وشمت الرائحة التي تعود بها إلى ذلك اليوم الذي رأت فيه العرافة، و لم تعد سلمى منه كما ذهبت، بل تغيرت ورأت ما لم تكن ترى في حياتها.

مع طرقات الجارة على الباب، كانت تخرج رأسها من فتحة ثوبها. سمعت كلمات الترحيب في الخارج تتبادلها أمها مع البنت، وهي تغسل وجهها وتفكر فيما قالته الجارة، كيف يباع السم في السوق، وهي التي عانت كثيرًا في إخفائه؟ ألا تكفي حكاية "مدينة" صديقتها؛ تلك الحكاية التي خلَّفت في قلبها جرحًا لا ينغلق؟ صورة "مدينة" وهي تبكي لا تفارق خيالها، وذلك الإحساس بالذنب لم يفارقها؛ هل أبت أن تكون "مدينة" هي أول من تجرب سم المضاجعة؟ هل رغبتها في أن تجربه هي أولاً جعلتها لا ترحم صديقتها؟

خرجت سلمى وحيت جارتها، وأخذتها من يدها خارجة من الدار، غير عابئة بدهشة الأم؛ ولا ما قالته عن الضيافة والفطور.

وعندما وصلا إلى السوق وجدا حشدًا من البنات هناك، ورجلاً غريبًا في المنتصف يبيع لهن زجاجات زرقاء. حاولت سلمى أن تشق الجمع كي ترى بعينيها ذلك الترياق. دارت في رأسها الأسئلة؛ هل عادت العرافة بتلك الكمية الكبيرة، وباعتها لهذا الرجل؟ شيء داخلها لم يصدق ذلك؛ لأن الذي حدث في ذلك اليوم أن العرافة قالت لها إن هذا السم لم يظهر في فم الودع إلا لجدتها؛ فكيف يكون موجودًا هنا بهذه الكمية الكبيرة؟

أخذت سلمى زجاجة من إحدى البنات هناك، وفتحت غطاءها وقربتها من أنفها. ابتسمت عندما أدركت أنه غير الذي أعطته لها العرافة قبل أعوام، واستدارت عائدة إلى البيت، تاركة جارتها وسط الزحام.

وصل الخبر إلى أم سلمى كما وصل إلى ابنتها من جارة لها. وهي جالسة تخبز أرغفة اليوم؛ دق الباب، وجاء الخبر، فاحترق رغيفان وصعد القلق ليعض القلب. دار بعقل الأم أن العرافة عادت وباعت سمها في السوق؛ بعد أن تأكدت من أن الخبر سافر إلى كل البيوت وأن الفتايات بتن الليالي يحلمن بترياق كهذا، ترياق يسكت ألسنة الجميع ليتكلم العشق.

دار بعقلها أيضا؛ أن عرافة السم الأزرق إنما جاءت لتثأر للعرافة المقتولة؛ التي بشرت بالغردجية، وأنها بحيلتها هذه؛تود لو تفتن الناس انتقامًا منهم على فعلتهم. كانت الغردجية هذه نوعًا من الأشجار متشابكة الفروع. تظلل بظلها الواسع من يعبر الصحراء مسافرًا، وكانوا يزرعونها لتظلل على قبور الأعيان والأكابر، ولذلك لما اجتمع الناس وسمعوا من العرافة، أن زانية سيظل قبرها بالغردجية؛ استبد بهم الغيظ فقتلوها، وأسموها فيما بينهم بعرافة الغردجية، ومنهم من قال إن تلك الشجرة نمت على قبرها دون أن يزرعها أحد لكنها أبدًا ما صدقت ذلك. شعور خفي استبد بها وفكرة تأكدت داخلها، وهي أن العرافة التي قابلت سلمى جاءت للانتقام لمثيلتها، وربما هي التي وزعت الزجاجات الزرقاء على الباعة.

في طريق عودتها إلى البيت، لم تكن سلمى تجر أذيال الخيبة، بل كان الفرح أمامها يتقافز، مثل الأرانب البرية على طول طريقها، وعيناها تلمعان

بلمعة اليقين الذي داخلها؛ فهي الوحيدة التي تملك السر، وحين عاودتها موجة شك خفيفة، قالت لنفسها: حتى لو كان ما يباع في السوق هو سم المضاجعة نفسه، فأنا أشعلت الشرارة الأولى وأنا التي بثت الأمل في كل فتيات البلدة.

حين دخلت سلمى إلى الدار؛ علمت من والدها أنها مطلوبة للاستجواب أمام مجلس الصيّادين، قفزت أرانب الفرح البرية بعيدًا عنها، وحل محلها خوف تحلق حولها. قال أبوها وهو يشرب الشاي الجبلي الذي أعدته له زوجته، إن المجلس سينعقد بعد أيام ليحقق في مسألة سم المضاجعة الذي ملأ البلدة فتنة، وزاد العذراوات تحديًا للأعراف والتقاليد. ثم تابع وقال: "تعرفين خطر ذلك على عاداتنا، وتعرفين أنه ما من أحد يكذب على المجلس"، ثم توجه نحوها ونظر في عينيها وقال: "سلمى بدي أنهي هذا الشيء، وما أسمع به أبدًا"

لم يحدد الأب يوم انعقاد المجلس واكتفى بأن قال: "بعد كام يوم" لكن سلمى استطاعت أن تعرف اليوم؛ بمجرد أن حلّ الليل ونظرت إلى السماء، وبالتحديد عندما نظرت إلى وجه القمر. فيوم المجلس هذا يحدد بحيث تكون الليلة قمراء؛ شريطة أن يشرق القمر فيها في أول الليل، لأن شروق القمر من خلف الجبال يعني أن البحر جزر لا مد فيه، ولمّا يكون البحر جزرًا يكون الماء في المكان الذي ينعقد فيه المجلس في ارتفاع شبرٍ أو شبرين؛ هذا المكان الذي يقولون عنه: "الوادي الذي نزل فيه الماء" هناك، حيث يمكن الجلوس في الماء على التراب الناعم؛ فهذا مكان المجلس

وطقوسه، وعلى كل المظالم أن تنتظر يومًا كهذا يأتي في الشهر مرة، أو يتعداه إلى شهرين.

كانت سلمى تعلم أن المشكلة ليست في السائل الأزرق في حد ذاته، بل في تحدي الأعراف والتقاليد، وبالذات في تحدي عرف "الدخَّل عند أهل القرية؛ فذلك العرف يحكم عادات الزواج لديهم وبعضا من تجارتهم، ويقضي ذلك العرف بأن البنت لابن عمها؛ هو أولى بها من أي غريب، وتدافع التقاليد عن هذا العرف؛ حتى إنها تُغَرِّم أي أب يمنع ابنته عن ابن عمها وتُلزمه بدفع غرامة كبيرة. فإذا تمنى فتى من القرية ابنة عمه وأراد زواجها، ذهب إلى وجيه من الوجهاء وقال له: "إني أدخلت ابنة عمي فلانة في وجهك": أي إنى ألوذ بك أن تخطب لي ابنة عمي من أبيها، وأدخلها في حماك حتى تأتيني بها. فيذهب به الرجل الوجيه إلى والد العروس؛ ويخطبها له قائلاً للأب:

"إن ابن أخيك ليدخل ابنتك في وجهي فإذا رُفض الفتى بعد ذلك من البنت أو من أبيها؛ قضى العرف أن يدفع الأب للفتى خمسين نعجة ثمنًا لذلك الرفض. ولا ينتهي الأمر عند ذلك الحد، بل يأتي يوم الدفع فيذهب بعض وجهاء القرية إلى الفتى في داره، ويحاولون تخفيف الثمن على عمه؛ فيطلب كل واحد منهم من الفتى أن يتنازل له عن بعض النعاج، فيتنازل لهذا عن خمس ولذلك عن ثلاث، حتى يعطيهم حق ضيافتهم ثم يمسك عن التنازل، فيدفع العم العدد المتبقي من النعاج. كانت تلك التنازلات التي يتنازلها الفتى لضيوفه من الوجهاء محسوبة بدقة، وما هي

إلا ديون أو رد ديون قديمة، فيحق للفتى في يوم آخر أن يذهب إلى أحد الرجال؛ ويقول له: إنى تنازلت لك عن خمس نعاج يوم كذا، واليوم إما أن ترد لي تنازلي، فتتنازل لي عن مثلهم في يوم من أيام الدخل الأخرى، وإما تعطيني إياهم. وهكذا تدار تلك العادات وتحكم الزواج والبيع والشراء. وأكثر من ذلك، كانت تستخدم في الأحكام العرفية؛ فإذا ما تشاجر رجلان وحكم المجلس على أحدهم بدفع عشر نعاج، ذكّر الرجل خصيمه بأنه تنازل له يوم أن دخلت فلانة بنت فلان في وجهه بخمس نعاج؛ فيدفع الرجل الخمس المتبقيات.

واليوم يجيء سم المضاجعة لتنقلب المعادلة، ويهدم ذلك النظام الصارم، وتضيع الحقوق، ويعلو صوت البنات.

فكرت سلمى في كل هذا، وتربع أمامها السؤال الصعب: ماذا تقول أمام مجلس الصيّادين؟ هل تبوح بسرها وتسلمهم تميمتها التي خصتها العرافة بها، وينتهي الأمر.. أم تنكر وجود الزجاجة الزرقاء وتكذب على المجلس؟

هل تستطيع أن تتحمل عواقب ذلك؟ هل صحيح أن من يرتكب ذلك تلحقه خيبة في كل مساعيه؟ هي تريد السم معها لتكون لحبيبها فقط، لكنها لو أعطتهم السر فستفقد حبيبها لو تقدم لها أحد أولاد عمها الذين هم أولى بها، ولو كذبت على المجلس فستحل عليها لعنة، ويضيع حبيبها منها. ما هذه الحيرة؟ أيضيع الحبيب في الحالتين.. أم ينقذها الله من عنده؟

5

جاء اليوم الذي يجتمع فيه مجلس الصيادين؛ ليقول كلمته في سم المضاجعة. ذهبت سلمى مع أبيها ومشت وراءه في حياء، ترتدي ثوبًا أخضر وتغطي رأسها كاملاً. تتصاعد أنفاسها حتى يتطاير غطاء رأسها، ويدق القلب بعنف كأنه يضرب الدماء بشدة؛ كي تهرع إلى أطراف الجسد، فتقيها من الخوف. القمر هناك في كامل استدارته؛ يشرق خلف الجبال، وخلف النوارس التي تطير عكس الريح. غلاله من السحب الخفيفة مرت هناك على جبين قمر أصفر مشرب بحمرة كأنها الخجل.

وصلت سلمى إلى الشط، ورأت جموعًا من الناس جالسين هناك في الماء، ظهورهم نحو الشط وينظرون إلى عرض البحر شهقت بصوت غير مسموع لما أصابها جلال المشهد، وتوقفت عيناها على صورة المشاعل المثبتة على جانبيّ المجلس والمغروسة في رمال البحر ببوص طويل.

ولما أصبحت سلمى على بعد خطوة واحدة من الشط، خلعت نعليها وولجت الماء خلف أبيها؛ فلامست أطراف الثوب الأخضر وجه الماء، وهي تنظر إلى مشيتها مخترقة جموع الجالسين سائرة على الرمال الناعمة، والماء يغطي كاحلها بسطحه الساكن الشفاف كالبلور. ضوء المشاعل وضوء القمر ينعكسان على الماء فيكتسي بلون خفيف ناعم بين الفضة والذهب. رفعت سلمى رأسها فرأت حكماء الصيّادين يجلسون في مواجهة الناس، والمشاعل خلفهم تلقي على وجوههم المحفورة ضوءًا وظلالاً وهيبة عظيمة. بدت الشُعل خلفهم مثل الراقصات يتلوين في الهواء ولا يبقين على حال. كان حكماء الصيادين يجلسون القرفصاء، وكان عددهم سبعة يتوسطهم كبير الصيادين بأعوامه التسعين.

جلست سلمى في الصف الأول بينما وجد أبوها مكانًا خلفها مباشرة. حيّت المجلس وكشفت شعرها. الكل يجلس القرفصاء هنا فيلامس الماء أسفله. أصحاب القضايا من الرجال يرتدون بناطيل بيضاء ويتركون الصدور عارية، وعلى النساء ثوب أخضر؛ تحل العذراء منهن شعرها وتغطيه الثيب. كان هذا التقليد القديم يفترض أن انحراف الإنسان وطغيانه يكمنان في عقله وسوءته، فإذا أطلق المرء رأسه في عراء الليل وغمس سوءته في الماء كان نقيًا أقرب إلى فطرته.

أقسمت سلمى أمام المجلس بطهارة الماء، أن تقول كل ما تعرف، وأكملت قسمها ببحر القلزم الذي أطاع الله فانشق لموسى. وبالقمر المكتمل الذي انشق باقتراب الساعة، ولما أشار كبير المجلس وقال لها: "شقي صدرك

مدت يدها إلى الماء؛ وغرفت ملء كفها، وشربت سبع شربات من ماء البحر المالح، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقصت عليهم قصة العرافة، وأقسمت أنها ما رأت العرافة بعد هذا اليوم، ولا ذلك السم الأزرق. حتى الشربة الخامسة من ماء البحر، كانت تنوي سلمى أن تعترف بأن الزجاجة الزرقاء لا تزال معها، لكنها في السادسة خافت أن تقول الحقيقة، فيسلبوها سمها الأزرق ويطفئوا حلمها الذي راودها وراود كل بنات البلدة. كذبت سلمى في تلك الليلة على المجلس والناس، كذبت على الماء وعلى البحر الذي يعيشون على خيراته، وارتعدت أعضاؤها وشعرت بالخزي؛ إلى أن أفاقت على الرجل يسألها: لماذا لم تشتر واحدة من الزجاجات الزرقاء التي كانت تباع في السوق، مثل جميع الفتيات؟ فأجابت بأنها ذهبت فعلاً لكنها اكتشفت أن الذي في الزجاجة ليس هو سم المضاجعة الذي كان مع العرافة؛ فليس له اللون نفسه ولا الرائحة نفسها، فسألها الرجل مندهشًا: "تذكرين ريحته؟" قالت: "نعم"، ثم قامت من مجلسها ورجعت إلى مكانها.

أدركت سلمى أن المجلس منعقد كي يقضي على ذلك السائل، سواءً كان موجودًا فعلاً أم صار فكرة في عقول الفتيات. ولذلك كذبت؛ لعلّها تستطيع في يوم ما أن تحيي ذلك الأمل في قلب العذراوات.

قضى المجلس بأن تحرق جميع الزجاجات، وأن يغرم كلٌ من يقتنيها بعشرة جمال؛ تنحر ويأكل منها الناس، كما قضى بأن يطرد بائع الزجاجات الذي قال إن العرافة هي التي باعته كل هذه الزجاجات، ولكنه

عندما وصف تلك العرافة للمجلس أدركت سلمى كما أدرك المجلس أنه يكذب.

قالت سلمى إن خبر السم الأزرق مات بعد تلك الواقعة، لكن الأمل داخل الفتيات لم يمت. وظللن يحلمن بأن تعود العرافة كلما ظلمت فتاة في حبها، وسيقت لابن عم لا تطيقه. قالت أيضا إنها لن تسامح نفسها على إنكار ذلك السم على صديقتها مدينة عندما توسلت إليها أن تعطيها رشفة منه، لكن "مدينة" ماتت بعدها بأيام في الصحراء، وذهب الرجال خلفها، لكنهم لم يعودوا إلا بفجيعة ظلت في ذاكرة القرية لسنوات.

6

مرت أشهر وسلمى خائفة من ذلك اليوم الذي كذبت فيه على مجلس الصيادين. ترى سيعود مهدي لها، أم ستلحقها لعنة الكذب التي قالوا عنها ؟

جلست إلى البحر تناجي حبيبها الذي يقضي شهورًا في أحشاء الجبل، ويعود لها بضعة أيام، فيعيد السلام إليها، ويروي قلبها بقربه؛ ثم يرحل مرة أخرى، لتنسدل رموش الحلم وتبدأ رحلة الانتظار من جديد. كانت مشتاقة له حتى أن قدميها كانت تتذكر إحساسها وهي تعبث في شعر صدره وظلت الأصابع تحتك ببعضها وكأنها تعوض نقص الإحساس.

لم يعد مهدي في تلك المرة كما توقعت سلمى، بل عاد مهمومًا شقيًا، بدا لكل أهل البلدة مسمومًا؛ لا تكاد تراه حتى تظن أنه سيموت في اللحظة التالية، وأن سمًا خفيًا يجري في عروقه. ولأن نسوة البلدة لا يقبلن أن يظل

أمر ما غير مفهوم، انبرت الألسن وتحولت البلدة إلى نول خفي لا يحيك إلا الشائعات. وأمسكت ألسن النسوة بأطراف الخيوط، وكانت الآذان الفاغرة أداة تجري على الخيوط وتنسجها؛ تلك الآذان الجاهزة للتصديق، والألسن الجاهزة للإضافة.

قالت إحداهن إنه مس شيطاني أصاب الفتى ابتلاء له، وأخرى ادعت أن جنية الجبل لحست مخ الفتى؛ ومدت لسانها الجبار في أذنه حتى مررت لسانها على عقله، ومسحت ذاكرته وأخذت رشده، وبالغت أخرى بأن الجنية تلوك العقول في فمها مثلما يلكن العلكات في وقت فراغهن وغيره. أما الأكثر واقعية وشرًا، ففسروا الأمر بما ينال لهن من مهدي وسلمى في آن، فأسررن لبعضهن بأن مهدي اكتشف في نفسه أنه ليس برجل. وكما تاقت نفوسهن لتداول الفضائح، استقر ذلك في عقولهن وأصبحن كلما رأينه يسير في الطرقات، تطايرت الضحكات المكتومة من أفواههن، وقليلات منهن تأسين على الفتى وشبابه.

الحقيقة كما تذكرها سلمى بعيدة كل البعد عن ذلك الهراء، لكنها بالأحرى أشد قسوة على الفتى؛ حقيقة مفزعة هشمت أضلاعه وسحقت روحه. حتى إنه عندما بلغه أمر شائعة، اكتشاف ذلك في نفسه، ابتسم ابتسامة أسى وقال: "يا ليت هذا "

مشى مهدي في الطرقات المظلمة بخطى واسعة، والنسوة قاعدات على أفواه الديار كالخفافيش السوداء تمتص دماء الحياة بألسنتهن المسمومة، حتى أن واحدة قالت لهن: لا داعي لإخفاء رؤوسكن عندما يعبر مهدي؛ فلم يعد الحياء يجدي معه.

ظل مهدي يومها سائرًا حتى عبر البيوت، وسار على شاطئ البحر في ·اة الماء، وكلما ابتعد عن البلدة أطبق الظلام. لا شيء حوله غير صوت لج البعيد الذي يراه في ضوء النجوم؛ كخط أبيض خافت.عندما كان بيرًا يلعب في هذه المنطقة مع أخيه حجاج وجيرانه الأولاد؛ قال أحد الاد ساعتها على خط الموج إنه يشبه شارب جده، وقال آخر: لماذا لا ين هذا هو شارب البحر؟ أما هو فصمت طويلاً قبل أن يقول: "هذا ثب الليل تلاقت عيون الأطفال في صمت، ثم رحلوا تاركين مهدي وجاجًا دون سبب.

ظر مهدي إلى السماء في جلال وخوف، ثم مضى في طريقه، وعيناه ثان على ضوء خافت، كان ذلك الضوء قادمًا من بضعة بيوت أعلى تل م، يكاد يسقط في ماء البحر.

بفصله عن ذلك التل مجرى مائي ضيق، حيث أحاط البحر بذلك الامن مئات السنين، وانصب في وادٍ منخفض مكونًا بحيرة كبيرة بها مخصائص البر ما لها من خصائص البحر.هذه البحيرة؛ التى أسماها الى "الوادي الذي نزل فيه الماء"، فالتلال الصغيرة اللائي كن في صحراء الدي، صرن اليوم جزرًا صغيرة ومرتعًا للنوارس والكابوريا. أما ذلك المرى الذي يفصل الشط عن تلك البحيرة فقد غدا عميقًا جدًا.بما حفر المواكل من القاع أثناء اندفاعه كالشلال من وإلى البحيرة. فمع حركات المواجزر؛ يغير الماء اتجاهه في المجرى. فإذا كان البحر في مده؛ اندفع الماء مرلبحر الكبير إلى البحيرة، وفي الجزر ينعكس اتجاه الماء.

نظر مهدي إلى أعلى، وعندما وجد القمر في منتصف السماء عرف أن البحر في حالة مد، فاتجه ناحية الغرب، ولما وصل إلى نقطة على الشط يدريها تمامًا؛ خلع ملابسه وربطها جميعًا حول رأسه. وبدراية ولج الماء ببطء، قاصدًا هذا التل الذي بنيت بيوته القليلة على منحدره الرهيب. حتى إنك تتساءل: "هل يمشون من في هذه البيوت مائلين إلى أسفل؟"، ولأن الممر عميق، كان عليه أن يحدد في هذا الظلام مكان المعبر الغربي؛ حيث تتجمع الرمال على حافة المجرى، كناتج لحفر طبيعي مارسته المياه منذ سنوات بعيدة.

بقدم واعية تحسس أول المعبر، وبهدوء العارف بخطر البحر المظلم سار، لا ينظر إلى قدمه، بل يملأ صدره بيود الهواء البحري البارد. وصل الماء إلى ما فوق فخذه، وقدمه مثل المجسات التي تختبر مهبطها بسرعة مدربة. لا يريد بأي حال أن يقلق أسماك الرمال التي تعشى بالليل؛ لأن ردة فعلها ستكون مفاجئة؛ فإما وخزة شوكة معدة للمتلصصين، وإما لسعة سوط تشبه ذلك الذي في يد عساكر الهجانة، وإما رعدة كهرباء تشل القدم، ولا هو كذلك يريد أن ينزلق في المجرى العميق. لكنه لم يكن فزعًا، بل يشعر بدفء ناعم يمسح روحه. يعرف أن هذا هو قانون الليل؛ الذي يبدل كائنات بكائنات ويكسو الأرض والبحر والسماء بالوحشة؛ فالصحراء تمتلئ ليلاً بالذئاب الجائعة والأفاعي، والطرقات تلفظ اللصوص وكائنات الليل البشرية، حتى السماء تضج بحركة النجوم الساقطة والشياطين والملائكة تجوبها روحة وجيئة.

وصل مهدي إلى الضفة الأخرى، ووطأت قدمه ذلك الصخر المدبب. مرر يده على ساقيه من أعلى إلى أسفل ليخلصها من الماء؛ ثم فك ملابسه عن رأسه وارتداها، أخذ شهيقًا معبأ باليود وقصد التل مباشرة.

في طفولته، صعد هو والأطفال مرات كثيرة منتصف التل. وعندما كان حرّاس المكان يزمجرون محذرين، كانوا ينحدرون في سرعة قاذفين أجسادهم في الماء ضاحكين. وهم يطفون على سطح الماء المندفع في الممر بقوة، حتى يرمي بهم على أعتاب المعبر الغربي، فيسيروا عليه حتى يعبروا إلى التل مرة أخرى ويعيدوا الكرة. وعندما يغلبهم التعب؛ يعبرون المعبر إلى الضفة الأخرى راكضين إلى بيوتهم.

صعد التلَّ وعبر منتصفه لأول مرة، وداخله مزيج من الرهبة والهم الثقيل، برغم الذكريات التي تفتقت عن أزمنة البهجة. لكنه ما إن عبر منتصف التل صاعدًا، حتى تلاشت الذكريات وأصوات الطفولة خفتت، ولم يبق في صدره غير همه الذي أتى من أجله.

أوقفه أناس يلبسون البياض، وجوههم الفاحمة لا تكاد تبين من الليل،حتى أنه ظن في وحشة الليل أن الجلابيب البيضاء لا يلبسها أحد. سألوه هؤلاء الفاحمون وأثقلوا عليه، وعندما كاد أن يرجع من شدة يأسه، سمحوا له أن يدخل دارًا مائلةً على البحر قائمة على منحدر التل. أعطاه أحدهم مصباحًا، وأشار له إلى الباب؛ بيد ممدودة لم يتبين منها إلا الجلباب. دخل مهدي وجلس على أحد المقاعد المبنية من الطوب، ووضع المصباح على منضدة بنيت من الطوب أيضا. لفح وجهه الملتهب هواء

باردًا أسود؛ قادمًا من فتحة في الجدار المائل، لو اقترب منها المرء لانحدر إلى الماء، وتناثر على الصخور المسننة في الأسفل، رفع مهدي رأسه فجأة ليرى شيخًا هرمًا في مقابلته، يرتدي حلة خضراء لا يعرف من أين جاء. ربما من شدة ما استبد به من فزع، ظنه صعد من تلك الكوة.

جلس الرجل في صمت، ومد يده إليه بقدح صفيحي وقال: اشرب.

أخذ مهدي الكوب ورفعه إلى فمه، و لم يدر إلا بطعم ماء البحر في حلقه. لم يجرؤ مهدي إلا على أن ينهي القدح.

قال الرجل: علمت أنك اجتهدت في طلبي.

قال مهدي: نعم.

أشار الرجل إليه أن يبدأ الكلام.

قال: رأيت شيئًا مخيفًا يا شيخنا؛ فيه هلاكي وهلاك أهلي من قبلي.

سأل الشيخ: إن كان حلمًا أو رؤية فاغرب عني، ليس هنا مطلبك.

قال مهدي: أقسم إنه لم يكن. أو يا ليته يا شيخنا كان حلمًا.

مال الشيخ بمجلسه، وأذن له أن يقص قصته.

استطرد مهدي وعينه مغموسة بدمع: أقسم يا شيخنا أني رأيت وحيًا بجوف الجبل؛ وحيًا حقيقيًا كلمني و لم أكلمه.

نظر الشيخ ناحية كوة الحائط.

ففهم مهدي مقصده وقال: ليتك تطعمني لسواد البحر، علّ أسنان الصخر تطهرني.

ولما أحس أن الشيخ لم يكذبه، حكى أنه جلس كعادته بعد أن رحل الجميع، وهربوا من جوف الجبل الرطب المظلم. وبعد أن هدأت المعاول وتوقفت عربات السكة الحديد، لم يكن معه إلا شربتان من الماء، ومصباح غاز يملأ المكان فحيحًا. التعب والرطوبة يفتتان العظام، ورائحة الرمال المخلوطة بالفوسفات تنخر في الصدر، والجبل يكاد ينقض عليهم لولا رحمة الله.

في ذلك الجوف المهيب، اعتاد أن يلحَّ على الله بالدعاء، وكم بكت عيناه من خشيته. يحس هناك أن الله قريب منه برغم اختفاء السماء وراء حلق الجبل المفغور في البدء، سمع صوتًا متحشرجًا كنعاس القط، ظل للحظة و لم يسكت. حدق في الظلام فلم يتبين غير رعب داخله استوطن رئتيه. وإذا بضوء باهر يغشاه. تعوّذ بالله وفتح عينيه اللتين أغلقهما الخوف، وإذا به كاملٌ؛ كأنه إنسان، طويل كشراع مركب. يقف محاذيًا للجدار الذي أمامه، له نور يخطف الأبصار، ويمتد في قلب العتمة كأنه يشقها بشيء من النور وشيء من غبار مضيء.

سكت لحظه كأنه يسترجع الصورة؛ فارتعد وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

"ما علمت يا شيخنا ماذا أفعل؟ أجن هذا، أم عفريت، أم لوثة في عقلي؟" امتدت يدي ناحية المصباح وقلت: الفرار.

قال الوحي: لا تخف أنت مهديٌ، كما قال الرحمن.

نعم، قال الرحمن. كانت كلماته بالعربية الفصحى وكأنه درس معي في الأزهر، وهل لعفريت أن يتكلم بالفصحى؟ لكني لم أظل، بل سقطت مغشيًا، و لم أدر إلا ونور الشمس حولي، ورجال يعملون معي يلغطون فوق رأسي.

كان مهدي منفعلاً يتقمص الحوار والأدوار، حتى إنه أكمل كلامه بالفصحى دون أن يدري، وربما أحس الشيخ أن هذا يشير إلى صدق روايته لكنه كان يستنكر تصديق مهدي لها إلى هذا الحد.

أكمل مهدي حكايته وقال:

"قمت من جلستي، ورأسي أثقل مما أحسست به دومًا. وجدت ملابسي وقد احترق منها الشيء اليسير

قال لي رئيس العمال: الرجل الإنجليزي يسأل إن كنت بخير. قلت له كذبًا: "نعم"

أعانوني حتى دخلت الخيمة، فسقطت على الفراش، والبرد يكاد يثقب عظامي. ناديت عليهم ففردوا عليّ الأغطية.

قال لي رئيس العمال بعد ثلاثة أيام، إنه لم يشهد أحدًا مرض يومين متتابعين و لم يرسله الرجل الإنجليزي إلى أهله إلاي. وأضاف أن الإنجليزي سأل عني، فظن هو أنه سيقول "خلاص مايجيش هنا يشتغل ويشير بيديه المتقاطعتين لتحملني الجمال إلى بلدتي، لكنه لم يقل.

قمت مع الرجل والفأس في يدي، وركّبت معه برميل الفوسفات، ودخل بنا جوف الجبل على القضبان حتى قفزنا منه، وانكببت على الصخر أضربه بفأسي مع الرجال، حتى انتصف اليوم فجلسنا إلى الطعام، ومثبت الجبل فوق رؤوسنا؛ لم أشق شفتيّ لا لطعام ولا لكلام. ظل فمي مغلقًا إلى أن قال سليمان لي مازحًا: " ليت المصباح أكمل وأحرقك، و لم تنس الكلام هكذا "

"ضحكت بصوت عالٍ، لأني كنت أظن أن العفريت هو الذي أشعل الأرض تحت مجلسي

شعر بالشيخ يتململ فقال له: "ما أتيتك من أجل عفريت، بل هو وحي ظهر لي بعدها"، وقال إنه أتاني من عند الله، وإنه سينزل عليّ من عنده ما يهديني، فأهدي به الناس.

قال ذلك وهدأ؛ لأن الشيخ عاود الإنصات بلا حراك.

ولما صب له الشيخ من ماء البحر، وشرب غير مبالٍ بطعم الملح، أضاف: إنه أتاه كما أتاه أول مرة، على سيرته الأولى كالفضة المنثورة، ودعاه باسمه وبشره، أنه سيحمل من الله كلمة، تعود بالأرض إلى سابق عهدها.

هنا قال الشيخ: "وفيم جئتني؟" وصمت برهة، وعيناه تثقبان جسد الفتى، وأضاف: "لتدعوني لشيطانك؟"

لا، بل جئتك لتقتلني.

"وفيم ترهقني، اذهب فاقتل نفسك".

- فكرت والله أن أفعل، وما أردت أن أموت كافرًا.

فضحك الشيخ وقام من مجلسه، ثم قال وهو عند فوهة الباب:

" أتخاف أن تموت كافرًا، وترضى أن تحيى كذلك؟"

عاد مهدي إلى البلد محزونًا، فهذا شيخ الصيادين وقاضي مجلسهم -أعلم من سمع به في حياته- يتجهم في وجهه ويكذبه. ماذا عساه أن يفعل؟ أيقعد عن منجم الفوسفات هذا، الذي جر عليه الهلاك؟ هل لو كان ما ظهر له عفريت أو وحي، يعجز عن أن يأتيه هنا وسط أهله في الدار، على شاطئ البحر، في الطريق خلف الجدران أو حتى تحت الأغطية؟ أي مكان يذهب إليه، وحتى لو فرضنا أنه لم يأت قط، هل يستطيع أن ينسى أنه رآه ذات يوم؟ هل له أن يكمل حياته؛ أن يتزوج وينجب دون أن يفكر في هذا اللغز العاصي؛ دون أن يوقظه من نومه، ويكويه في صحوه؟ آه من هذه الحيرة التي تعصف بعقله المسكين، ما عساه أن يفعل؟ أيقوى على أن يقتل نفسه؟ أيقوى على أن يعيش ؟

7

مرت الأيام على مهدي، كأنما تدوس على عقله بأقدامها الجبارة. فبين كوابيس الليل المرعبة وشرود طويل بالنهار. كل حركة حوله تفزعه، حتى احتار فيه من حوله؛ فهذا أخوه حجاج قلق عليه، وسلمى تبحث عنه في كل مكان، وهو يختفي من كل الأماكن التي تعرفها.

في النهاية لم تفلح جميع محاولات مهدي لتجنب لقاء سلمى. كما لم تفلح إرادته أمام عينيها، وقد لفح شعاعها الحار خده، تمامًا كصيف وحشي لا يهدأ. ظل يحكي لها كطفل؛ عما حدث في بطن الجبل، وعن لقائه مع شيخ الصيادين. تلا عليها جميع تساؤلاته، هل يرجع؟ هل يقعد؟ هل يقتل نفسه أم يتركها تعذبه؟

الحقيقة أنه لم ينتظر منها أن تجيب عن أسئلته، لكنها أجابته عندما قال في حيرة: ماذا أفعل؟

ببساطة شديدة قالت له: تزوجني.

وقعت الكلمة عليه كأنما ضرب البرق عموده الفقري، أحس بارتعاشات تسري في عظامه؛ فما قضى العرف قط أن تقول امرأة هذا، ولو علم أبوها أو سمع مخلوق ذلك منها لجلدها كالزانية. نظرة الإصرار بعينيها زلزلت ما بداخله. فجأة شعر بالإرهاق، وسمع بأذنه عظام رأسه وهى تصدر صوتًا؛ يشبه الطقطقة، أخذته سلمى فى حضنها حتى غاب عن الوجود وأستكان كطفل وهدأ وصمت كثيرًا ومرت لحظات من السكينة قبل أن يعودا كل إلى بيته.

لم يفصح مهدي بسره إلا لسلمى وأخيه حجاج، فحجاج هذا كان يكبره بعامين، ويشتغل بالصيد حينًا ويقص الأثر أحيانًا، لا تعيقه عن ذلك عينه الخضراء التي لا ترى إلا النور. وحكاية عينه الخضراء هذه أنه كان له صديق يدعى صالح أخذه فى سفر طويل في الصحراء الغربية كي يعاونه في فك طلاسم جريمة طلبه إليها شيوخ الواحات هناك وبينما حجاج يقص الأثر مرة وهو يمشي على أربع كالثعلب؛ داس بيديه على شيء تحت الرمال له صوت. أحس بخطر فارتمى وتقلب مبتعدًا عنه، لكن اللغم الذي انفجر طال عينه اليسرى فصارت خضراء لا سواد فيها. لم يحزن حجاج على عينه؛ فللعماء قصص في عائلتهم. لكنه تعلّم أن ما تحت الرمال لهو أحوج إلى أن يقص أثره.

بدت على حجاج ومهدي منذ الصغر مظاهر رجولة مبكرة، وكيف لا يحدث هذا، وقد فقد أبوهما بصره وهما صغيران، وكانت عليهما

أعباء منذ اليوم الأول الذي قعد والدهما فيه عن الصيد. حُفر في ذاكرة الولدين؛ ذلك اليوم الذي فقد فيه الأب بصره، وهو ماش يحمل شباكه ويغازل الموج في ذاكرته، بأهازيج من التراث أحيانًا، وبأهازيج أخرى ارتجلها في حينه. فجأة قعد الرجل على الرمال؛ فتجمع الناس حوله وحملوه إلى داره.

مكث الرجل في داره ثلاثة أيام لم يخبر أحدًا أن عينيه لا تريان، فقد كان يغلقهما طيلة الوقت. لا شيء يبدو عليه إلا الحزن المخيف، لا ينطق إلا بالقليل. لايعرف أحد كيف استطاع الشيخ إخفاء عماه ولا كيف عمي من في الدار عن هذه الحقيقة، لكنه في اليوم الثالث نده على ولديه، وطلب منهما أن يأخذاه خارج المنزل. حمل الولدان الشيخ، وأقعداه على مصطبة الدار. حينها فقط قال لهما إنه قد أصابه العمى.

لم يصدق الولدان إلا صرخة الأم التي كانت تسمع الخبر. ومع هذه الصرخة الملتاعة، أدركا صدق ما يقول. العجيب أن المرأة حزنت على عمى زوجها أكثر منه، فلم تذق من الطعام إلا اليسير حتى ماتت بعدها بعدة أشهر.

لم يعرف الشط أولادًا أصبحوا رجالاً بين يوم وليلة إلا مهدي وحجاج. كان زغب الشارب الأول يكاد أن يستحي من ظهوره أعلى شفاه حجاج، وعندما ماتت والدته، وبالتحديد عندما رأى دموع العمى في عين أبيه، طقت الرجولة من كل جوانبه وجوانب أخيه الصغير. ساعتها لم يدرك الأب المكلوم أن أحدًا بالغرفة؛ فترك الدموع الخرساء

تغسل عماه ونهنه كثيرًا، وبين الحين والحين ينادي على ولديه؛ كي يطمئن على عدم وجودهما بالمكان، لكن الولدين كانا هناك يراقبانه في صمت الموت وحزن الشواهد

منذ ذلك اليوم انعقد ميثاق أبدي بين الأخوين على خدمة الشيخ الضرير، وعلى أن يحفظا بعضهما. ولذلك عندما سمع حجاج حكاية وحي الجبل هذه، أصر على أن يذهب معه، ويرى بعينه ذلك الجبار الذي فتك بأخيه. ورفض دعاوي سلمى بألا يذهبا إلى تلك البقعة مرة أخرى. وقال: لابد من مواجهة الأمر وألقي في روعه شيئًا زاد من خوفه ورجائه وهما يركبان الجملين إلى الجنوب؛ حيث منجم الفوسفات الذي ظهر فيه هذا الشيء. قال: ألا يمكن أن تكون أنت المهدي المنتظر؟

كاد يخر مهدي من فوق جمله وهو يقلب في رأسه ما سمعه من حجاج: كيف يا حجاج تنطق بذلك... أنا ؟وهل المهدي المنتظر يوحى إليه؟ لا لا هذا هراء، هكذا حدّث أخاه قبل أن يغرقا في صمت دام سويعات وهما ينظران في عيون بعضهما بين الحين والآخر، ثم يبدأ الصمت موجة جديدة، ليقلب كلّ واحد منهما نظره في الأفق.

حركة الجمل الرتيبة والصحراء المترامية تشدان الذكريات من سباتها. تذكر مهدي والده الذي كان يجلس في الشمس الحارقة ساعات النهار جميعها، وعند الغروب يأوي إلى فراشه لا يبرحه حتى تجيء شمس أخرى. سأله مهدي ذات يوم وهو جالس مسحورٌ أمام الدار: كيف يحتمل لظى الشمس طوال النهار، لا يتزحزح إلى الظل؟ فأجابه بأنه في

الشمس يرى بياضا ناصعًا كالحليب لا يرى غيره، وفي الليل يرى سوادًا عنيفًا، لا يسكنه حتى عفريت، وسأله الأب بمرارة: لو كنت مثلي لا قدر الله لك مكروه، فأيهما تختار؟ لم ينتظر الأب إجابة من ولده، وراح يركب البياض مسحورًا كما كان.

قضى الرجل أيامه الأخيرة بين ناصع البياض وحلكة لا تلين، صامتًا أكثر الأحيان، ذاهلاً يحدق في بياض هائل لا أشباح فيه. قال له ذات يوم: إن الأعمى لا يخاف إلا الحُفر والجدران، أما العفاريت والجن فلا وجود لهما في عالم العماء.

رحمك الله يا أبي. آه لو لم أرَ هذا الشيء الذي قلب عمري، وسمعت الذي قاله لي ليتني أستطيع أن أفقأ عينيّ، ولا أرى هذا الشيء مرة أخرى. أتُرى حقًا هل تستحي العفاريت من الأعمى؟ وماذا لو كان وحيًا؟ هل ظهر وحي لأعمى من قبل؟ هل يمكن أن أكون أنا ذلك المهدي؟ جازاك الله يا حجاج من أين أتيت بهذه الفكرة؟ هل يسمح الله لعفريت أو لجان أن يلبس وحيًا ويحدّث الناس هكذا؟ ألا يعرف الجن نفسه أن الوحي قد رُفع؟ يا هلاكي وأنا لا أملك إلا الأسئلة.

أما حجاج فبدا أكثر التحامًا بالصحراء، يجول بعينه الوحيدة في الفضاء الوسيع وبحر الرمال الممتد. يرسم حدود الأفق وحدود النظر.

يعرف الجبال بأسمائها، والريح بمواسمها، يتذكر الأحداث والأماكن. هب صالح على الذاكرة بحكاياته مع الذئاب والنساء وقص الآثار.

لم يكن الذئب بريئًا من الدم هذه المرة، بل هو الذي مزق غابد ابن السبع سنوات ولوث قميصه وثقب قلب أبيه صالح، لكن صالح لم تبيض عيناه و لم يحزن بل ذهب إلى الذئاب في أوكارها ليأخذ ثأر ولده منها، قص آثارها من على الرمال والصخور، تتبع اللعاب الذي يسيل من فمها على الأحجار فعرف متى تجوع ومتى تشبع؟ جمع فروها المتناثر بين أشواك النباتات، حتى زارها في بيوتها واختار النهار حيث تنام أغلب الوقت، كانت بارودته في يده بمسورتها المشقوقة إلى نصفين تحدق معه بين الجبال والوديان، فإذا ما رأت ذئبًا نائمًا في جحر عميق بين الصخور؛ استيقظت وأيقظت الغبار والصدى، وعندما يسيل دم الذئب على الرمال يبكي صالح على ولده ويقرر ألا يفعل ذلك فمهما قتل من الذئاب؛ لا عابد سيعود ولا هو سينساه، لكن صدره ما يلبث أن يشتعل بالثأر مرة أخرى فيعاود الكرة مرات ومرات، والحقيقة أن صالح في قرارة نفسه؛ عهد بأن يقتل من ذئاب ذلك الساحل عدد الأشهر التي عاشها عابد في حضنه وكان يقول: والله لأجيبلك منهم عدد ما رأيت من البدور. في رحلات الثأر هذه التقى صالح بحجاج وأخذه معه وعلمه من فنون الاقتفاء ما لم يعلم. علمه نصب الأفخاخ للإيقاع بالفرائس والأفخاخ التي يكون الهدف منها جلب الآثار، يذكر حجاج أن صالح وضع القماش المبلول باللبن ليمتص رائحة الذئاب ويدلّه عليها، وفي أوقات أخرى بنثر الفحم لنفس الغرض، ويصطاد الأرانب البرية كي يضعها طعمًا بالقرب من الأوكار فإذا وقع في الفخ ثعلب أفلته وأعطاه من لحم الأرنب ما يسد جوعه، أما إذا وقع ذئب ترك البارودة تفتح له باب الموت بعينيها. كان

حجاج بعينه الوحيدة يبتلع فنون الاقتفاء هذه ويتعلمها من صالح، وكأنما يكمل بما يتعلمه عينه الناقصة، أما عينه الخضراء فكانت لا تفتح إلا باب الحلم ولا تستقبل إلا الخيال الواسع، ومع مرور الأيام صارت لحجاج عين مبصرة وعين بصيرة.

كم تسابق حجاج مع صالح في التفريق بين خطوات الذئب وخطوات الذئبة وأكثر من ذلك بين خطوات الذئبة الحُبلى والذئبة المرضعة، قال صالح ذات مرة عن إحدى الخطوات: إنها لذئبة لها ولد واحد وإنه يرضع من ضرعها الأيسر وعندما لمعت عين حجاج بالتساؤل قال له: إن الضرع المليء باللبن يُبعد الأقدام قليلاً والأرجل اليمنى بعيدة وهذا معناه أن الضرع الأيمن ممتلئ، وأن الذئبة إذا بالت فتحت رجليها كي لا يسيل البول على ثديها فيضر الصغير، كان صالح فقيهًا في الاقتفاء لا يضاهيه في هذه النواحي أحد.

أهدى إلى حجاج جل فنونه مقابل أن يساعده في الأخذ بثأر ولده، لا ينسى حجاج يوم قتل صالح ذئبة مُرضعة بطلقة في رأسها، لم تبرح الذئبة مكانها ولا أنّت، وعندما انقشع الغبار اقترب صالح منها وإذا برضيعها يحاول في جهد أن يُكمل رضاعته؛ لا يعرف لماذا توقف اللبن؟ بكى صالح في هذا اليوم حتى هز نشيجه الجبل؛ ولما اقترح عليه حجاج أن يعطي الذئب الرضيع لأمٍّ أخرى رفض وعندما تسائل حجاج عن سبب الرفض؛ نظر للصغير فوجده لم يفتح عينيه للدنيا بعد، فصمت.

حمل صالح الصغير بين يديه وعاد إلى الدار، سقاه حليب الماعز حتى

تفتحت عيناه، العجيب أن المعزة كانت تتجمد رعبًا لو رأت ذلك الصغير وتدلها غريزتها رغم صغر سنه بأن تبتعد عنه لكن الذئب الصغير بدا بريئًا وجميلاً له فرو ناعم وأنياب ناصعة وصغيرة، قال حجاج إن صالح أحب الذئب الصغير وصار يتباطىء في رحلات الثأر ويدلّل الصغير ويلعب معه ويتركه يلعب مع العنزات الصغيرات، اللائى لم تنضج غرائزهن و لم يخفن ذلك الغريب.

اشتدّ عود الذئب وصار يحرس العنزات كأنه كلب القطيع وكان يكتفي بقطع اللحم التي يعطيها له صالح، لكن ذلك لم يدم طويلاً؛ فجاء ذلك اليوم المنذور وهاج الذئب الشاب على العنزات وقطعهن إربًا إربًا وهرب إلى الجبال.

لم تكن لوعة صالح عادية؛ بل بدا كأنه فقد عقله و لم يفلح حجاج في تهدئة روعه. جلس صالح على ركبتيه وأخذ ينادي بعلو صوته على عابد. لا يعرف حجاج إن كان ينادي على عابد ولده أم أنه ينادي على الذئب الهارب ولما هدأ قليلاً أنشد يقول:

ديبة ما تتيبا

إن الطبع غلب التأديبا

أكلتُ عنزي وقطعتُ قلبي

ما أدراك أن أباك ديبا

تمتم حجاج أبيات صالح بصوت خافت فانقشعت الذكرى وعاد منها

فوجد نفسه قريبًا من مكان يعرفه جيدًا، هنا على هذه البقعة الموحشة والبعيدة عن البلدة بمسيرة نصف يوم، رُميت "مدينة" زوجة حمود وعشيقها هكذا في الصحراء، كما قضى مجلس الصيادين.

يتذكر حجاج أن مجلس الصيادين حكم بأن يطلقها حمود؛ بعد أن رآها في الفراش مع عشيقها. لم تحدث واقعة كهذه في قرية الصيادين منذ ثلاثين سنة. فليس لصياد أن يعشق امرأة غيره، الكل هنا يعرف التقاليد، التي ترسم حدودًا واضحة للجميع. ولذلك قضى المجلس أن تُرمى مع عشيقها في بقعة موحشة لا شيء حولهما إلا الرمال والقيظ. هكذا يُتركان لله؛ فإما أن يموتا من العطش، وإما أن يصفح عنهما بارئهما فيجدهما أحد السيارة. و لم يسمح المجلس لحمود أن يقتلها، هكذا قضى حكم عجيب كأنه لسبب ما لم يحكم بشيء، وترك الحكم لله.

أتى حجاج إلى المكان مع بضعة رجال، بعد تمام اليوم الخامس من إلقاء مدينة وعشيقها في الصحراء، وقد عرف حجاج في البلدة وذاع صيت قدرته النادرة على قص الأثر. فقد تعلم على يد صالح الذي قيل عنه إنه يقص أثر كل شيء حتى العفاريت.

تجمع الرجال وذهبوا كي يروا العشيقين بعد إقصائهما، إن كانا قد نجيا أم ماتا من العطش، وأكلت الضباع من لحمهما. حملوا معهم ماء للغسل وجواريف لحفر قبرين لهما. وقبل أن يدركوا المكان، نزل حجاج من على جمله يقص الأثر، فوجد آثارًا لأرجل ناقة تتجه إلى البقعة التي ألقيا فيها.

قال حجاج للرجال: هذه الناقة عوراء مثلي.

تبسم الرجال وسألوه كيف عرف. فأشار لهم إلى العشب الذي على يمين طريقها وآثار القضم عليه، بينما الأعشاب التي على يسار ممشاها سليمة وكأنها لم ترَ تلك الأعشاب لعمى في عينها الشمال. سار حجاج وتتبع آثارها بضعة أمتار بحثًا عن شيء يدله على صاحب الناقة. وعندما مال على الأرض ناظرًا إلى بعرها الذي خلفته، وجده متجمعًا في وسط الطريق على غير عادة الجمال والنوق؛ حيث تستخدم الجمال ذيولها في تفريق بعرها يمينًا وشمالاً، فأدرك حجاج أن هذه الناقة مقطوعة الذيل

نظر حجاج إلى عين حمود الذي أتى ليرى ما فعل الله بزوجته، ففهم حمود من نظرة صاحبه أن أحد السيارة قد مر من هنا، وربما أنقذها وأخذها معه. وذلك دليل على أن الله صفح عنها وغفر لها خطيئتها، وربما هما الآن -هي وعشيقها- في مكان بعيد بعد أن نجيا من الموت. طأطأ حمود رأسه في انكسار و لم يرفعه، إلا عندما صاح أحد الرجال: توب الفاجرة.

أسرع حمود وحجاج إليه. فإذا به يمسك بثوب حريمي عرف فيه حمود ثوب زوجته فاندهش.

قال حجاج: ربما خطفها صاحب الناقة وما أنقذها. نظر الجميع إلى بعضهم البعض في حيرة. تداخلت ساعتها مشاعر حمود؛ فشعر مع كلمات حجاج بالغيرة على زوجته؛ إذ كيف يخطفها أحد الرحالة ويجردها من ملابسها هكذا بلا حياء؟ ربما شعر قبلها بندم خفي عندما أدرك أن الله قد صفح عنها.

على الرغم أن حمودًا هذا أتى وهو يحلم أن يجد الضبع قد اجتزأ من جسدها الميت، وغرس أسنانه في لحمها الذي فرطت فيه. لكن أن يخطفها رجل غريب بعد أن غفر الله لها، فهذا لا يستطيع احتماله أبدًا. قال لهم حجاج أنه يظن أن جسد العشيق بالقرب من هذا المكان، وإنه في أغلب الأحيان سيكون مقتولاً تفرق الرجال باحثين عن جسد الرجل.

سار حجاج ناحية البحر، فوجد نعل الرجل ملقى على الرمال، وراح يبحث عن آثار الناقة، ولم يعر همًّا لجثمان الرجل. فكر ما الذي يجعل رحالاً لا يغيث من أشرفا على الموت؟ ولماذا يخطف المرأة بعد أن يجردها من ملابسها؟ ما سمع بأحد يخطف النساء في هذه النواحي، أيكون من عساكر الهجانة سود القلوب والبشرة؟ وأين يحملها؟ هل يحملها إلى معسكر الجيش؟ وكيف يجردها من ملابسها؟!

آه لو صدق حدسي، ساعتها لن أخاف بارود الهجانة، وسأنال من الهجان ولو كان كبيرهم. قال لنفسه هذا ثم أكمل: هذه ناقة عُشر فآثارها غائرة في التراب وخطواتها ليست بعيدة عن بعضها، فهي تمشي على مهل خوفًا على حملها، والهجانة لا يخرجون بنوق عُشر؛ لأنها لا تجري بسرعة، كما أنها ناقة معيبة؛ فهي عوراء ومقطوعة الذيل، والهجانة غالبًا ما يبعدون النوق المعيبة أو يذبحونها.

آه لو كان صالح معي لقصصنا الأثر معًا وعرفنا الرجل، لكن صالحًا هجر الديار بعدما علمني قراءة الأثر وعلمته الصيد، وبينما هو يحدث نفسه سمع صراخًا مدويًا. قلب نظره في الأفق فوجد حمودًا يصرخ ملتاعًا

وهو راكع على ركبتيه. تجمع الرجال حوله، ولحق بهم حجاج، ويا لهول ما رأوا. جسدان عاريان تشبثا بعضهما ببعض، عرف حمود في جسد المرأة زوجته، وفي جسد الرجل ذلك العشيق الآثم.

ما عسى أن يكون بينهما؟ أيتعاشران في صحراء الموت، هكذا في قيظ الرمال، هنا في محكمة البرية؟ وقف حمود على شفا الجنون طويلاً بينما الرجال يحفرون قبرين لهما. أخذ حجاج حمودًا الذي بدا شعره وقد شاب في هذه اللحظة. سقاه ماء من القربة، وأخذه بعيدًا عن المشهد. مرت لحظة وحجاج لا يجد أول الكلام، لا يملك إلا أن يحتضن حمودًا من آن لآخر، دون كلمة واحدة. نادى رجل على حجاج فذهب تاركًا جسد حمود يرتعد كالذي فتكت به الحمى. ذهب حجاج إلى الرجال فأخبروه أنهم لا يستطيعون فك الجسدين بعضهما عن بعض؛ فالأذرع تيبست وكل واحد قابض على الآخر. سأل رجل: هل نقطع الأذرع بالجواريف؟ لكن حجاجًا رفض، وأشار عليهم أن يرموا الجسدين في قبر واحد.

لم يستطع حجاج في طريق العودة ألا يفكر في تلك الناقة العشر وصاحبها الذي لم يسعفهما. أتراه فرّ حين وجدهما يتعاشران في الصحراء؟ أكان ذلك في الليل فلم يرهما؟ أيصبران على عريهما في برد الليل؟ قافلة من الأسئلة ألحت عليه؛ لكنه ما ملك لها أجوبة، ملأ صدره بالهواء ونظر إلى الأفق البعيد وداخله نداء مكتوم وتحسر على من كان يفك غموض الأسئلة ويرى ما حدث في الصحراء كأنه حدث أمام عينيه،

ويجلو الغموض ويقرأ الرمل والريح والنجوم وتذكر حجاج في هذه اللحظة صاحبة الأسئلة حكاية صالح الذي علمه أن يتهجى كلام الرمل.

من آن لآخر كان حجاج يطمئن -كما يفعل الجميع- على حمود ويتأكد أنه بخير

بدا حمود ذاهلاً طول الوقت، يتساءل عن الذي حدث. إنه لم يعاشر زوجته على هذا النحو قط. لم يتجردا تمامًا من كل ملابسهما، وما كان في هذا البر أحد يفعل ذلك؛ فللجسد حرمة، والنساء يصررن على إخفاء أجزاء من أجسادهن. حتى هو نفسه لم ير جسدها كاملاً إلا في هذه اللحظة المرعبة، فكيف لهذه الفاجرة أن تتجرد لوجه الكلب هذا ؟

ماذا يا ترى سيقول الرجال عندما يعودون إلى البلدة؟ أي عار سيلاحقه ويضرب صحوه ومنامه؟ ستأكل الألسنة لحم وجهه وتفقأ العيون عينيه بنظرات كالحراب، ليس هو وحده، بل عائلته، ستلوك الألسن سيرتهم سنوات طوالاً

لم يحتمل الرجل العار، فسقط من فوق جمله ميتًا. انتبه الرجال على صوت ارتطام جسده بالتراب، نزل حجاج من على جمله مسرعًا، ولما وجده فارق الحياة، أسبل عينيه وحمله على جمله عائدًا.

8

أوقف حجاج جمله على مقربة من ذلك المكان الذي دفنت فيه مدينة؛ فتوقفت الذكريات في رأسه. كانت شجيرة الغردجية تظل بجذعها على ذلك القبر فتجعل المكان مميزًا. لكز حجاج الجمل في بطنه، فنخ باركًا. نزل من عليه إلى الأرض حاملاً معه مخلاته، وأفترش الرمال. وعندما لمح مهدي مندهشًا، مدّ يده داخل المخلاة، وأخرج ملء كفيه فحمًا. ففهم مهدي أن هذا وقت الشاي. لكز ناقته تلك اللكزة، فنخت باركة بجوار بعيرها. جمع مهدي بعض الأحجار ورصها حول الفحم، وأحضر حجاج إناء الشاي وصب فيه الماء وأشعل تحته. وفي انتظار الشاي، تذكر حجاج فجأة آثار تلك الناقة التي اقتربت من العشيقين و لم تنقذهما.

ما الذي جعلك يا حجاج تذكر هذه الناقة؟ ألأنها بالفعل جاثية الآن قرب بعيرك؟ أصدفة أن تفتش ذاكرتك بحثًا عنها وهي أمامك تنظر

إليك في صمت، وما صاحبها إلا أخوك؟ إنه يتذكر مثلك كيف أتى وراء العاشقين كي ينقذهما؛ فهو يعرف كيف كانا مظلومين. أوقعهما حمود في شرك الانتقام لا لشيء سوى أنه أبى أن تحب ابنة عمه غيره، فتزوجها كرهًا بعد أن حشد ضدها تقاليد الصيادين، التي تقول: إن البنت لابن عمها متى طلبها.

حاولت "مدينة" الفكاك من قيد حمود، حتى إنها ذهبت إلى سلمى تترجاها وتقبل قدميها أن تعطيها رشفة من سم العرافة؛ ليكون جسدها مسممًا على حمود ابن عمها، لكن سلمى خافت وأنكرت أن يكون معها مثل ذلك السم. فسيقت مدينة لحمود الذي أبدًا ما أحبها.

وبعدما تمنعت عليه ثلاثة أيام، وبعدما أبرحها أبوها ضربًا، استسلمت مدينة وتركت جسدها مستباحًا لزوج عنوتها. لكنها كانت تضاجعه كالميتة؛ لا دماء فيها ولا روح. ولما يئس حمود منها لم يجد سبيلاً للانتقام منها، إلا أن يوقعها في شرك الزنا مع حبيبها الذي باتت تذكره وترتل أشعارًا في عشقه. سمع حمود تلك الأشعار خارجة بين الارتجاف والدموع، رأى الأبيات متلونة بلون الدم الذي يسيل من شج في رأسها، فحنّى شفتيها – تلك العاشقتين– ففار الغيظ من مسامه.

لم يرحم حمود توسلات البنت و لم يفهم كلامها، بل أخذ يدبر الأمر. وما إن استطاع بمكر شديد أن يجمعهما تحت سقف واحد، ليكفكفا دمعهما، حتى ادّعى أنه رأى الفتى يعاشر زوجته، وأخذ يضربه ويركله بقدمه وهي تدفعه بكل ما لديها من قوة.

شدّ جلبابها بقوة شيطان داخله، فانكشف جسدها، وأصبحت الوليمة جاهزة لمؤامرة كاملة التفاصيل، لا ينقصها إلا أناس تاقت نفوسهم إلى الفضائح.

هكذا حكم مجلس الصيادين على العاشقين بالنفي، بتركهما لمحكمة الإله هناك في الصحراء. تعجب الجميع من ذلك الحكم، وما قضى المجلس بمثله قط؛ فذهب رجال يحملون العاشقيْن على الجمال، ويتركونهما بلا زاد ولا ماء. كنت -أنت يا حجاج- واحدًا منهم، ومعك ذهب حمود ليتشفى في زوجته "مدينة" التي تمنعت بالحب عليه عندما كان ينصب لها شباكًا مجدولة من الضحكات والحكايا كي تقع في هواه، ولكنها لم تقع. وتمنعت عليه مرة أخرى عندما تزوجها صاغرة؛ بواسطة تقاليد حيكت بعناية؛ عناية رجال يعلمون حب التملك عند أولاد العم.

عاد الرجال وتركوا العاشقيْن خلفهم. ولم يدر بقصتهما سوى مهدي و سلمى.

أتت سلمى تحكي لمهدي كيف تضرعت لها صديقتها "مدينة" كي تعطيها رشفة من سم المضاجعة. قالت لها إنها تعرف أنه معها، وإنها مهما ادّعت بأن العرافة أخذته معها فهي أبدًا لا تصدق. حكت البنت لسلمى عن حبها وعن حمود الذي علم بحبها لغيره، فذهب ليخطبها من أبيها بصحبة كبراء العائلة. وعن أبيها عبد التقاليد الذي أمرها بأن تتزوج ابن عمها حفاظًا على الهيبة العائلية.

بكت مدينة وركعت تقبل قدم سلمى؛ كي تعطيها رشفة من ترياق

المنكسرات، لكن سلمى أنكرت للمرة الألف، وخافت للمرة الألف من أمها.

قالت سلمى إن البنت كفت عن البكاء فجأة، وتوجهت إلى السماء، وقالت موجهة حديثها لرب العالمين: "ليش ما خليت هذا السم في الصحرا، في زهرة، في سمكة؟ ليش هو مخفي عنا؟ ليش نضيع من قلوبنا؟ ليش نضيع من قلوبنا؟ " وغادرت وهي تهلوس بكلمات ودموع.

عندما علم مهدي بالحكم الذي حكمه مجلس الصيادين، ذهب متخفيًا على ناقته العشر؛ لينقذ العاشقيْن بعد أن ينصرف الرجال عنهما. كان خائفًا من أن ينكشف أمره، وأخذ يفكر كيف يضلل من يحاول أن يقتفي أثره حتى هداه تفكيره لفكرة جهنمية، فربط ذيل الناقة حتى لا يفرق بعرها وعصب عينها اليسرى كي تبدو عوراء، وسار ببطء في طرق عرجاء حتى لا يراه أحد. ولما رأى الرجال يبتعدون؛ اقترب أكثر ناحية العاشقيْن. رآهما ثابتين، لم يضعفا، و لم يصرخا أو يترجيا العودة، بل على العكس بدا وكأنهما في عرس حقيقي، بعد أن ذهبت لوثة العالم عنهما. قاما يرقصان ويهللان ويبتدعان طقوسًا لفرح أخير، فرح منزوع من أنياب التقاليد.

نظرا إلى تلك الجبال التي تفصلهما عن البلدة والتي لفظتهما في العراء. ضحكا مجلجلين وهما ينظران إلى البعيد. خلف تلك الجبال؛ وحش الإنسان، كم أنه أضل وأقسى من وحش الجبل الذي تركا له.

بدا أنهما على استعداد لأن يفترسا أي وحش وهما معًا. ظلا يلعبان

في البرية كطفلين، حتى تذكرا أن الموت قادم لهما لا محالة. و لم يبق غير سويعات قليلة من الفرح. فقررا أن ينتصرا للفرح الأخير على الرعب، وحتى على الموت ذاته. خلعا ملابسهما كما خلعهما العالم، ومع كل قطعة يخلعانها ينتصران على القبح، ويستقبلان فرحهما الجسدي، حتى إذا تخلصا من أثقالهما؛ عادا إلى ذاتيهما. تأمل الرجل جسد حبيبته طالعًا كشجرة من الرمال، وهي واقفة على بعد خطوات من قلبه. تلمع في عينيها الدهشة الأخيرة، تحير مهدي متى ينقذهما؟ أيقطع تلك اللحظة عليهما؟ وقال لنفسه: لا لن أفعل. وتنهد تنهيدة كبيرة وأكمل: آه عندما تكون كل انفعالات الإنسان من فرح ودهشة ورغبة هي الأخيرة. آه عندما يدرك الإنسان ميعاد موته. ساعتها يصبح الجسد حارًا لا بحرارة الشمس ولا بحرارة الرغبة ولكن بحرارة الحرية؛ حرية من تحرر من عقدة الموت. آه يا لذة السويعات الأخيرة، آه عندما تفض الجسد وتودعه في الوقت نفسه.

اندمجا كوحشين في البرية يفترسان سنوات حزنهما. لثم الرجل كل قطعة في جسد حبيبته، افترشا الرمال وتداخلا، حتى رموش العين تداخلت، والشمس هناك تضرب ظهر الرجل بسياط من حميم؛ فيشتعل الوجود بداخله ويختلط عرقه بعرقها بالرمال.

بديا وكأنهما كتلة آدمية تهتز في الريح، ويلتمع جسدهما الواحد تحت أشعة الشمس الصفراء، والمرأة تنفرج وتنقبض كقلب، وتتأوه بلا خوف، وحنان العالم مخبوء في نهديها اللذين لم يريا الشمس إلا في هذه اللحظة.

تختلط داخلها بشارة التكوين والخصب ببشارة الفناء. ولما همد الجسدان تعالى صراخهما يملأ الصحراء لوعة ونحيبًا؛ فقد أحسا بدبيب الموت يأتي إليهما.

انتهى الشاي عند مشهد الذكريات هذا، لم يشك حجاج قط في ناقة أخيه؛ فلا هي عوراء ولا مقطوعة الذيل. لكن الأخوين قاما من مجلسهما دون اتفاق ونظرا نظرتين إلى ذلك القبر وتلك الغردجية اليانعة، ثم ركبا جمليهما وسارا صامتين.

9

كان "مستر ريد" مدير الموقع عائدًا لتوّه من الإسكندرية، عندما صار الموقع على مرمى بصر من الأخوين مهدي وحجاج، حتى إن غبار السيارات الذي ارتفع إلى السماء حاجبًا الرؤية؛ ظل محلقًا في الجو، ففتح باب الذكرى ليخرج منها وحي الجبل، ويعلق بذهن مهدي، فيسري داخله دبيب الخوف ممزوجًا بالترقب. أما حجاج فقد ملأه الإحساس بالتحدي والأمل معًا.

دخل مهدي إلى خيمة كبير العمال مقدمًا للرجل أخيه حجاجًا؛ كعامل جديد يريد أن ينضم إلى الموقع. تفرس الرجل في وجه حجاج، وأطال النظر إلى عينه الخضراء. لم يكن يبدو على ملامح حجاج أنه يريد العمل فعلاً، كما بدت إجاباته عن أسئلة الرجل محيرة، بها من الثقة ما لم يعهده الرجل في عامل يتكلم مع رئيس العمّال.

شيء خفي دار في عقل الرجل، عندما أحس بغيظ مكتوم من هذا الواقف أمامه في شموخ، وأراد أن يلقنه درسًا، فأمرهما بأن يتبعانه. ذهب الرجل ناحية البيت الخشبي ذي السقف المائل، والذي يقطنه مدير الموقع. ساعتها أدرك مهدي أن الرجل لم يحب أخاه، وأنه يضمر له شيئًا، لكنه التزم الصمت وسار مع أخيه خلف الرجل. كان البيت الخشبي أشبه بالكوخ من بعيد، بسقف مثلث الشكل، وألوان قانية، لكنك كلما اقتربت منه؛ وجدته منزلاً كبيرًا عاليًا، تتصاعد من مدخنته الأبخرة. أحاط البيت فناء صغير له سور منخفض مبني بالطوب المفرغ المرصوص بجوار بعضه. ما إن اقترب الثلاثة حتى تعالى صوت الديك الرومي المربوط من قدمه، ولم يكن الأخوان قد رأيا هذا الكائن من قبل. صعدا السلم الخشبي خلف رئيس العمّال، وعيونهما معلقة على الفرخ صاحب الصوت المقبض ذاك؛ والذي زاد من رهبتهما.

طرق الرجل الباب فأجاب أحد الخدم من الداخل، ولما عرف أنهم يريدون لقاء "المستر"، أغلق الباب مرة أخرى. مرت دقائق قبل أن يفتح الرجل الباب ثانية ويدعوهم للدخول.

دخل الأخوان إلى صالة واسعة ومنها إلى ممر على جانبيه كثير من الغرف، وكانت أغلب الحوائط مغطاة باللون البني المحمر، وهناك مدفأة مصنوعة من الطوب وصور معلقة على الحائط لبيوت خشبية طافية على سطح الماء، ورسم يدوي لأهرامات الجيزة. أما في غرفة المكتب التي دخل إليها مهدي وأخوه، فكانت ممتلئة بالكتب المرصوصة بعناية على أرفف

في الحائط، وبعض منها مبعثر هنا وهناك. جلد ثعبان ضخم معلق على الحائط ومدفأة أخرى أصغر حجمًا كانت موقدة، لم يكن هناك أحد بالغرفة حين دخلاها، تأمل مهدي بعض الصور لـ"مستر ريد" مع بعض الحيوانات البرية وهو يقف إلى جانبها مشمر الأكمام يضيّق عينيه من شدة الضوء، بينما ذهب مهدي يتحسس جلد الثعبان حين دخل "مستر ريد" إلى الغرفة.

قال ريد: إنه مذهل حقًا، أتيت به من جنوب السودان.

اندهش حجاج للغته العربية الواضحة، على الرغم من بعض الغرابة في حروفها.

قال "ريد" موجهًا كلامه لحجاج: أنت أخوه، أليس كذلك؟

هز حجاج رأسه موافقًا، فأكمل كلامه: أنت لم تعمل في الفوسفات من قبل، فليس في جسدك أي علامة على ذلك، لا في يديك ولا بشرة وجهك، أنت بحار في أغلب الظن، أو ربما راعي غنم، نظراتك ثاقبة تبتلع الوجود من حولها وملامحك منحوتة.

دار في الغرفة والتقط من جانب المدفأة سيخًا ثم جلس على مقعد خلف المكتب. وأشار إلى حجاج بالسيخ، وهو يقول بصوت عميق: لا أعرف لماذا أنت هنا؟ ولكن لا بأس، إن كنت ستنفذ ما يطلب منك بغير جلبة البحارة ولا تمردها. اذهبا الآن وربما أطلبكما ثانية.

قال ذلك وهو يقوم من جلسته، وربت على كتف مهدي بالسيخ،

وقبل أن يغادر الأخوان الغرفة، استوقفهما وقال: تعرفان إني أحب في أولاد الصحراء قدرتهم على تقفي الآثار. ربما أسمع منكما فيما بعد حكايات عن ذلك. نظر الأخوان إلى بعضهما ثم خرجا من الغرفة؛ عندما لم يجدا شيئًا على وجه "مستر ريد" غير ابتسامة خافتة ليس لها معنى.

10

مرت عشرة أيام ومهدي ينتظر ذلك الوحي بلا جدوى. جلس داخل المغارة وحيدًا، وتعمد أن يبقى بعد رحيل العمّال، و لم يظهر ذلك الوحي. حتى إنه جلس على قمة بعض الجبال المحيطة، في الشمس تارة، وفى الظلام تارة أخرى، دون جدوى. فكر وهو على قمة الجبل في جدوى ما يفعل؛ إنه يستدعي ذلك الوحي العصي فلا يأتي متمنعًا عليه. نظر إلى المعسكر والخيام وبيت الخواجة الملاصق للجبل، كل شيء من هذا الارتفاع يبدو صغيرًا، وهو وحيد هنا يبحث عن شيء في نفسه، في الصحراء الصامتة. البحر ممدود حتى نهايات البصر، والنسور في السماء، والرمال مفروشة بها الأرض؛ لا سراب يداعب أحلامه، ولا سحابة في السماء يمكن أن يمني نفسه بأن الوحي وراءها. قفز سؤال إلى عقله دون سبب ودون إجابة: لماذا خلق الله السراب؟ لكنه لم يعد يعبأ بالأسئلة، ولا متى تتكون في عقله. شعر برغبة دفينة تجيء من أعماقه، ولا يستطيع أن يفسرها. شيء من الخواء

والحزن والضياع، وربما وحدة موحشة أطبقت عليه في تلك الأثناء، وربما رغب في أن تنتهي حياته هنا على قمة ذلك الجبل. قال لهم الشيخ عندما كان يدرس في الأزهر: إن الإنسان تحكمه رغبتان وتلحان عليه: رغبة الحياة؛ ورغبة الفناء، لكنه أبدًا ما صدق أن الإنسان تحكمه رغبة في الفناء إلا الآن. شعر برغبة أكيدة في أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل، وقال لنفسه هل لو سعيت للقاء الله فلن يلقاني؟ هل لابد أن أشرب كأس الدنيا حتى آخره؟ إن كان آخر الدنيا لقاء الله، فأنا أريد أن ألقاه الآن. تذكر في هذه اللحظة سلمى وزارته صورتها، وتذكر أن إبراهيم –عليه السلام– قال لربه: "كي يطمئن قلبي وتذكر خليطًا من الأشياء، ولم يسأل نفسه: ما الذي أتى بها إلى ذاكرته بلا موعد ولا استدعاء؟ جلس في حر الشمس، وكأنه يعاقب نفسه، أو أن جزءًا منه تقمص والده، وعند غروب الشمس لم يفعل إلا أن نزل من فوق الجبل بعد أن هداه تفكيره إلى حيلة أخرى.

تسلل إلى المغارة قبل أن يغلقوا أبوابها في الليل، وبات ليلة كاملة في ذلك الظلام الدامس والهواء الرطب، وما أدراك ما المبيت في جوف مغارة جبلية على بعد عشرات المترات من فم الجبل؟ لكن مهدي بات ليلته ساهرًا يفكر فيما أصابه، طابور من الأسئلة انتظره هناك، أوله وأعصاه على الإجابة: ماذا سيفعل لو أن ذلك الوحي لم يظهر ثانية؟ ماذا سيقول لأخيه الذي أتى معه إلى هنا؟ بأي شيء سيبرر ذلك لسلمى ولشيخ الصيادين؟ أحس بالوهم يأكل رأسه، والتساؤلات تحلق به في أرض الجنون.

ماذا كنت تنتظر أيها الآثم؟ أوحي في خيالك أنساك كل ما درست في الأزهر؟ ياهلاكي؛ هل هذا شرك؟ لكني لم أشرك مع الله أحدًا، قد أكون

صدّيقًا صالحًا من أصحاب الرؤى أو زنديقًا كافرًا، هل انقطع الوحي عني فترة وسيعود؟ هل أدعو الله أن يعود ويكمل ما بدأه؟ وبماذا أدعوه؟ هل أدعوه بغير الذي قال؟ لكن الوحي جاءني من عند الله لا من عند غيره. هل أعود لبلدتي كما خرجت منها؟ هل أبلغ شيخ الصيادين بقصتي أحدًا؟ وهل يقبلني في مجلسه بعد اليوم؟ هل يصدر أمرًا بإبعادي عن أهلي؛ فأتوه في الصحراء بلا مأوى، أو أعيش في بلد آخر لا أعرف فيها أحدًا؟

هل تأتي سلمى معي وتهجر أهلها؟ وماذا عساني أن أفعل في هذا البلد؟ لا يهم إن كان الوحي حقيقة أو وهمًا لكنه أضاف إلى حياتي ما أحتاج: هدفًا أعيش من أجله، وما كان هدفي قبل ذلك؟ إنني لا أذكر لماذا كنت أعيش، وبماذا كنت أحلم؟ آه لم أعجز عن رفع يدي بالدعاء لله قبل اليوم: "يا رب أعني، يا رب أعني علا صوت مهدي وتردد في المغارة المظلمة، ثم عاد إليه وهز كيانه حتى سقط على الأرض، ووجد نفسه يزحف على الأرض بأظافره والرعدة كالكهرباء تسري في جسده، والدموع تتساقط من عينيه وهو يصرخ: "يا رب أرني وحيك.. أرني وحيك" وصار يرددها حتى غلبه النعاس. لم يدر مهدي إلا بيد حجاج توقظه ونور الصباح يملأ عينيه. لا يعرف مهدي ولا يذكر كيف أخرجه حجاج من المغارة، لكنه يذكر أنه قال له: هذا يومنا العاشر فهلا رجعنا إلى بيوتنا؟ أومأ مهدي موافقًا في انكسار، لكن ما حدث في تلك الظهيرة كان هو الحدث الأكبر، ليس في حياة مهدي فقط؛ بل في حياة كثيرين، إن لم يكن في المنطقة بأسرها، ولولا بعض الملابسات لكانت الإنسانية جمعاء تذكر تلك الأحداث. لكن الأمور تعقدت لدرجة كبيرة،

وسرعان م تحول الأمر إلى جريمة عاديـة، ومطاردين في كـل مكان، واضطهاد متدّ ليشمـل ذلك السـاحل كله.

في جوف الجبل، مـرّت الساعات عادية ليس فيها ما يدهش، عشرات العمال يبقون بطن الجبل من الداخل؛ وآخرون يحملون مقاطف مملوءة بركـام الحـر، والعربات تجيء وتروح كل برهة حاملة خامات الجبل، وأحيانًا أخرى معدات وعمالاً ومهندسين صغارًا من الأجانب.

شيء يجعل البشر في الأنفاق يتصرفون على نحـو ما غريب، يعملون بسرعة غيرمعتادة، ويلفهم جميعًا إحساس باطني بأن مصيرهم مرتبط ببعض، ربم هو شعـور بأن هذا المكان الذي يعـج بالنشاط والأغنيات يمكـن في لحظة واحدة أن يتحول إلى قبر جماعي؛ لا فرق فيـه بيـن شخص وآخر. لا فق بين مصري وأجنبي؛ من أتى من جنوب الوادي أو كان ساكنًا من سكان الصحراء. كانوا سواسية مـع اختلافهم، فالجبل لا يقيم فرقًا بين هذا وذاك، حين يرمـي بإحدى صخوره الهائلة في وجه فرد أو جماعة، دون سابق إشارة؛ يأخذهم هكذا ويعرك لحومهم، ويكسّـر عظـامهم. حتى إذا ما تجمع الرجال ورفعـوا لعنة الجبل عـن الضحايا، وجـدت لحمًا أبيض لأحد الأجانب عُصر مع لحم أحد الذين أفحمتهم شمس الجنوب. وإذا نظرت إلى الدماء المنسكبة على الرمـال، فلن تفرق أبدًا بين الدمـين غير أن الإنجليز دائمًا ما استأثروا بأساليب الأمان والخوذات والكمامات والأحذية العالية، وتركوا العمال يموتـون بالربو وأمراض قلة الهواء الطـازج واختفاء أشعة الشمس عنهم. لكنهم أبدًا ما استطاعوا أن يتوقعوا الانهيارات الداخلية لجوف الجبل. وكـم كرهـوا تلـك الخدع

الجبلية المباغتة، ليس فقط لما تحدثه من خسائر في الأرواح والمعدات، ولكن لأنها تضعهم وجهًا لوجه مع مساواة الموت. ولأن العمال بعد كل حادثة من هذه الحوادث يتجرأون عليهم ويرون جانبًا من عجزهم، بالإضافة إلى تذمر هؤلاء العمال من كم المخاطر المحيطة بهم.

مرّت ساعات العمل على مهدي وهو بين الشرود والخوف المكتوم والرجاء الخفي. انتظر انقضاء الساعات؛ فقد استبعد أن يحدث شيء والعمال حوله مجتمعون، فلم يحدث ولو مرة واحدة أن ظهر وحي أو عفريت أمام العيان، وعلى الملأ هكذا. تذكر أنه ظل سنوات في كتّاب الشيخ منصور حتى حفظ ثلاثة أرباع القرآن، وفي سن العاشرة سافر في زيارة إلى أحد أعمامه، الذي يدرس في الأزهر وجلس مع عمه في حلقات دروسه وهو يلبس جلبابًا أبيض، ويفتح جميع حواسه لشيوخ عظام. وبرغم أن إدراكه كان محدودًا، فإن بعض الجمل علقت بذهنه كنقش فرعوني. وظل يذكر تلك الكلمات المبعثرة، حتى جاء اليوم الذي درس فيه في الأزهر. لكن ما ألح عليه في هذه اللحظة بالذات، هي زيارة الأزهر وهو صغير برئ، لا ينسى أبدًا أنه قبل عودته إلى بلده أخذه عمه في رحلة أثيرية غسلت روحه، وأن يدًا جبّارة قد مُدت داخله يومها، ووضعت في قلبه شعورًا دينيًا ويقينًا راسخًا لازمه حتى رأى هذا الملعون يراوده عن يقينه.

أتذكر يا مهدي هذه الدموع التي بللت جلبابك الأبيض، وأنت تمسك يد عمك الخشنة عندما أخذك في رحلة توديع المحمل، ورأيت رؤيا العين كسوة الكعبة؛ وهي تسافر في جلال إلى الأراضي المقدسة؟

حلمت ساعتها أن تسافر معهم، وأن تخلع هذه الكسوة على الكعبة، وتمد يدك الصغيرة إلى حجرها، وأن تمسح دموعك في ثوبها. لكنك الآن وبنفس ماجنة عصية تنتظر وحيًا آخر. يا لهلاك روحك.

فجأة انقطع النور الصادر من كل المصابيح التي تنير المكان. ها أنت قد فقدت بصرك يا مهدي ولحقتك لعنة العمى جزاء تمنيك الأحمق، وانتظارك الملتاث لمسخ الجبل هذا؛ ها أنت عميت مثل والدك وانتهت حياتك.

تذكر وهو يحادث نفسه هكذا قول أبيه: إن دنيا العميان ليس بها عفاريت؛ فأصابه حزن مفاجئ حيث إنه لن يرى هذا الوحي مرة أخرى، ثم أسّر لنفسه: ولماذا لا يكون الله قد طهره بهذا العمى؛ لكي لا يعصاه؛ ففرح قليلاً، وأحس أن ثمة همًّا قد ذهب عن قلبه. وبينما هو يتأرجح بين الفرح والحزن، ظهر الوحي بصورته الهائلة. سمع مهدي شهقات العمال فأدرك أنه تبدى للعيان. ظل الوحي صامتًا قليلاً، فتقدم مهدي بين صفوف العمال وقلبه يخفق بشدة، حتى إن عظام صدره كانت تؤلمه، وانبجس العرق من كل مسامه؛ على الرغم من برودة الجو في هذا اليوم. هرب كثير من العمال إلى خارج النفق وهم يترنحون من الخوف، وركع بعضهم على الأرض، وتسمر البعض الآخر في مكانه. بحث مهدي عن حجاج بنظره فلم يجده. وفي ظل هذه الجلبة؛ تكلم الوحي بصوت قوي وقال: "أتيتك من عند الله، لتهدي الناس، وترجعهم مرجع الحق، وتلم خرافك حولك، وتزرع فيهم بذرة الخير والمحبة، وتؤلف بين قلوبهم، فلك مني تعاليم أعلمك

إياها وكلام منزل؛ فكن صبورًا حافظًا، وكن سلامًا لشعبك وعشيرتك، فالألواح المحطمة أعطيها لك، واختلاف النساخ أجلوه من أجلك. هب لي روحك أهب لك اليمن والبركات لك ولكل من خرج من ظهرك.

اختفى الوحي فجأة، وساد الظلام برهة أو برهتيْن. ثم عادت المصابيح تعمل وتضيء المكان بضوئها الخافت.

لم ينبس أحد بكلمة، وظل الناس يحدقون في بعضهم بعيون زائغة اتسع بياضها، وكادت العقول تصدر صوتًا من شدة الحيرة والخوف. لا أحد يعرف ما ينبغي عمله الآن، لا أحد يعرف أو يذكر أي شيء. كل العقول استحالت إلى صفحات بيضاء، حتى اللغة لم يعد أحد قادرًا على النطق بها، فصار الناس يهمهمون بأصوات هي خليط من الأنين والسعال والشهقات. خليط غريب بين النحيب والضحك وتهتهة الأخرس. ظل الناس على هذا الحال حتى أفاقوا على أحد العمال ميتًا، وعلى ملامحه لم يزل الرعب باديًا إلى أن خفت شيئًا فشيئًا، ليتحول وجهه إلى وجه صافٍ طفولي ليس عليه أي انفعالات، وفمه المفتوح قليلاً تفوح منه رائحةَ الجوع والموت.

لم يفلح مشهد الموت هذا في أن يلهي العمال عن حالة السكر التي بدأت تنتشر في دمائهم. بدأ الأمر عندما هز أحد العمال رأسه بعنف مسبحًا الله بصوت جهوري أضفى على الموقف ورعًا؛ ما لبث أن انتشر بين الجميع. حتى تحول بطن الجبل إلى ساحة ذكر واسعة، الأصوات تتعالى فترج الصخور والمصابيح، وحده مهدي كان مندهشًا ولا يسبح معهم؛ فقد كانت تتناوشه عدة مشاعر أعقد كثيرًا من أن يفسرها عقله. لكن الذي

لم يخطر بباله قط هو الذي حدث بعد ذلك؛ فقد كان يظن أن الناس في حالة من الاتصال الصوفي، غير أن كل واحد من العمال لم يكن هائمًا بعقله في ملكوت الورع بل كان يفكر بعمق، ويهبط السؤال عليهم جميعًا كما هبط الوحي.

ترى هل أنا المقصود؟ فالوحي لم يحدد أحدًا. حاول العديد منهم طرد ذلك السؤال من عقله، وما كان استمراره في التسبيح بصوت عالٍ إلا تغطية على صراع داخله. أدرك مهدي بعد قليل أنه سيواجه حشدًا من الأنبياء المزيفين عندما هدأ الصوت وقام كلّ واحد منهم من مكانه وصراعه باديًا على وجهه وبرزت خطواتهم وحركاتهم كأن حكمة ما هبطت عليهم فجأة. قليل منهم بدا عاديًا وكأن ذلك الصراع حسم داخله على نحو ما. فكر مهدي فيما هو مقبل عليه فقد زال عنه شكه بأنه ليس مقصودًا من قبل الوحي، وأن عليه تقع مسؤوليات كبيرة. وفي الحقيقة، لم يعد يفكر في أن الوحي قد انقطع، ولا كيف يأتيه وحي بعد أن ختمت الرسالات؛ فكل هذه الأفكار أقصاها في آخر ركن من عقله، وانتهى إلى أنه على الوحي أن يفك هذه الألغاز فيما بعد. فقط عليه أن يصبر إلى أن ينجلي الأمر.

ولكن المشكلة الأكثر تعقيدًا التي لم يدركها مهدي هي: كيف يبدأ الدعوة مع أناس ظن كلّ واحد منهم أنه نبي يوحى إليه؟ فقد كانت الأهوال التي لاقاها الأنبياء في الماضي مع أناس دافعوا عن ديانات أخرى وثنية أو سماوية سابقة ليست ملكًا لأحد، واختلفت النوازع بين المصالح الشخصية ورواج التجارة أو بقاء الحكم لكن الأمر هنا مختلف فسوف

يدافع كل واحد عن نبوته هو؛ سيدافع عنها حتى آخر قطرة من دمه؛ ظنًا منه أنه يضحي من أجل الحق، وقد يؤدي ذلك إلى قتال ضارٍ ليس بين جيشين، بل بين كل العمال في الوقت ذاته. كل واحد جيش نفسه، وربما قُتل هو وأخوه في هذه الحرب.

بحث مهدي عن حجاج وسط الجموع فلم يجده.

جلس حجاج في ركن قصي يفكر في شيء بدا بعيدًا عما يحدث على الرغم من متابعته لكل ما جرى. كان يفكر في قص الأثر، ويعتريه شك في كل ما جرى؛ لأنه الوحيد الذي لم يصبه الرعب، ولم يعتقد أنه المقصود؛ فهو يعرف قصة أخيه مع ذلك الوحي.

فكرة غريبة داعبت عقله، هي أن يقص أثر ذلك الوحي، على الرغم من أنه أتى فجأة واختفي في فجأة مشابهة، فمن أين أتى، أكان طائرًا أم ماشيًا، أم كيف دخل لجوف الجبل؛ البعيد عن ضوء الشمس بالخارج بعدًا كبيرًا؟ تذكر حجاج صالحًا الذي علمه "قص الأثر صالحًا هذا الذي غيّر حياته، والذي مات له ولدين في الصحراء قبل أن يأتي إلى ديارهم، ويقضي معهم عدة سنوات يتعلم الصيد من حجاج ويعلمه قص الأثر، ويحكي له كل ليلة عن الصحراء وما حدث له في حياته. كان له مولودان يوسف وعابد ماتا، وخلفا دمعة دائمة في عين صالح لا تجف ولا تسقط وكأنها ملتصقة بعينيه.

تذكر حجاج أن صالحًا قضى ليالٍ يحكي له عن ذلك، وهو شارد في حاله، فما الذي جعل صالحًا يأتي مع أمواج الذاكرة؟ ربما لأن تلك الفكرة الغريبة بدت تتبلور في عقله. لكنه فجأة وجد مهدي أمامه ينظر إليه في

عتب على اختفائه عن ذلك الحفل.

باغته حجاج: ما ظني أنه وحي، الوحي ما يظهر أمام الناس كلها في الوقت نفسه.

لكنه أتاني أنا.

لا يا مهدي.

- ليش غيرت رأيك.
- فكر شوي، هذا شي ما نعرفه، لكن ما هو وحي.
- وكيف عرفت؟
- ما عرفت، لكنى بدي أعرف.
- كيف؟
- سأقص أثره.

تقص أثر الوحي !!

سكنت اللحظة بينهما، ولم ينبس أحد بكلمة. غير أن صوت الشجار الذي بدأ يدب بين العمال؛ جعل مهدي يتوجه إليهم وداخله غضب.

11

ما الذي أصابك يا حجاج؟ هل جننت أم أصابتك لوثة الجبل؟ كيف تجرؤ على مثل هذا التصور؟

هل خطر لأحد في العالمين أن يقص أثر وحي من السماء؟ صحيح أن جدودنا حكوا لنا عن قصاصين قدامى اقتفوا أثر العفاريت، لكنا أبدًا ما صدقنا ذلك. وحتى إن كان صدقًا وأفلح مع العفاريت، فهل يفلح ذلك مع وحي من عند الله؟ إذن لماذا لم تقص قريش أثر جبريل -عليه السلام- يوم أن كان لا يضاهيهم أحد في اقتفاء الآثار؟ أعجزوا عن ذلك، أم لم يجر ببالهم هذا الهراء؟ وحتى إن كان للوحي أثر يُقص؛ فهل يعجز الله عن مداراة ذلك؟ بأن يبعث جندًا يخفون الأثر لا، محال أن يفعل ذلك بشر.

آه منك يا حجاج أتيت بك كي تعينني على هذا الأمر، فإذا بك تتنكر

لي! هل حرقت قلبك الغيرة؛ لأن الله اصطفاني أنا دونك؟ ألم تتهلل عندما خطر ببالك أني المهدي المنتظر؟ ولكن ما العجب في ذلك؟ ألم يَغر قابيل من أخيه؟ أيمكن أن تمد يدك لتقتلني ؟

لابد إنني أهذي؛ فقد أعماني الغضب. ونظر مهدي إلى الرجال المتصارعين هناك، وأكمل في سره: وما لهؤلاء السفهاء يتصارعون على النبوة؟ حقًا هؤلاء أحفاد قابيل وهابيل.

أما حجاج فبدا حديثه إلى نفسه مختلفًا، وإن بدأ المبتدأ نفسه: مسكين أخي ذهب عقله خلف خيالات غريبة. ذهبت دراسته في الأزهر التي كنا نتباهى بها ونقول أنها كانت نورًا لنا جميعًا، أني مازلت أتذكره وهو يجلس صامتًا يفكر ساعات طويلة، وكثيرًا ما خشيت عليه أمه من الخرف، لكن الخرف لم يأت في حياتك يا أمي؛ أتاه بعد أن أصبح يتيمًا. لكني سأثبت له أن ذلك ليس وحيًا.

قام حجاج من جلسته وذهب إلى الجدار الذي بدا عنده الوحي، وتذكر صورته وهو يتمتم في سره: كان ذلك الوحي على صورة إنسان، وتذكر عند تلك اللحظة أن جبريل –عليه السلام– تمثل لمريم بشرًا سويًا، وأكمل: لكنه ظهر بنصفه الأعلى فقط، و لم نرَ نصفه الأسفل. أكان ذلك من أجل إخفاء الأثر؟ اقترب حجاج من جدار المغارة، وأخذ يحدق في التراب أسفل المنطقة، لكنه ما وجد شيئًا. قام من جلسته؛ فشاهد ظله على الجدار قائمًا، لكنه بدا أكبر من حجم جسمه قليلاً.

سأل نفسه: ما بال الذي رأيناه بطول نخلة، وحجم حوت كبير؟

هل الذي ظهر في حراء كان كبيرًا؟ هل الذي ظهر لمريم عند النخلة كان بطول تلك النخلة؟ ما هذه الحيرة؟ وبينما هو كذلك، أخذ دون وعي منه يقترب من الجدار، ويبتعد وكأنه يراقص ظله، وذلك الظل يتغير حجمه بقدر اقترابه وابتعاده من الجدار. لمعت فكرة في عين حجاج، وإذا به يرجع إلى الخلف محدقًا في ظله حتى إذا قارب حجمه حجم الوحي الذي رآه. راح يبحث في تراب تلك المنطقة.

كان مهدي يقف هناك بعد أن فض الاشتباك بين العمال بمساعدة بعض المهندسين الإنجليز، وعندما فرغ، أخذ يتأمل حجاجًا عن بُعد وهو يحاول اقتفاء الأثر. رآه وهو يداعب ظله هناك على الجدار نفسه الذي بدا عنده الوحي، وشاهده يرجع إلى الخلف فيكبر ظله على الحائط، فابتسم ابتسامة خبيثة؛ فالظل كان قاتمًا، عكس الوحي الذي بدا مضيئًا، لكنه فطن إلى ما يحاول فعله؛ فلابد أن حجاجًا مازال يذكر كلام الجد عندما قال لهم ذات مرة: إن العفاريت هي ظلال لكائنات أخرى، كائنات في مكان بعيد قد يكون من هذا العالم أو من عالم آخر.

رأى مهدي حجاجًا يحاول على ضوء هذا المصباح أن يتوقع بُعد هذا الكائن عن الجدار باعتبار أنه كان ظل عفريت، لكن الظل دائمًا أسود ليست له ملامح، والوحي كان باديًا بملامحه التي تمثَل فيها.

وإذا كانت العفاريت ظلالاً فلا أحد يعرف بالضبط إن كانت ملونة أم قاتمة كظل البشر.

لكن حجاجًا يبدو أنه يتتبع شيئًا وهو يقترب من الأرض هكذا. وجد

حجاج آثارًا لثلاثة رجال يرتدون أحذية كأحذية الإنجليز، فعرف أنهم من المهندسين الأجانب، وعلى الأرض بدت آثارًا دائرية غائرة، بدت كأنها لشيء ما يقف على ثلاث قوائم، قدر أن هذا الشيء ثقيل؛ لما رأى آثاره غائرة في الرمال، وبالقرب من الآثار الثلاثية، وجد آثار أحد الرجال وقد غاصت مقدمة حذائه؛ مما يدّل على أنه كان يميل بجسده إلى الأمام ناحية الشيء صاحب القوائم؛ فهو إما كان يأكل منه، وإما ينظر إليه، وإما يشَمّه، فما الذي يجعله يميل ناحيته؟ وعندما لم يجد حجاج بقايا أكل، استبعد أن يكون الرجل صاحب الشيء قد أكل منه. لكن رائحة طفيفة سكنت المكان من حوله، فرجع حجاج إلى الخلف قليلاً ليعرف من أين جاء هؤلاء، وإذا به يجد لهم رابعًا تدل آثاره على أنه ليس أجنبيًا. فحذاؤه من تلك الأحذية التي يرتديها العمال، لكن آثار ذلك الحذاء غائرة في الأرض؛ بما يشي بأنه حمل شيئًا ثقيلاً ومشى خلفهم. توقفت آثار ذلك الرابع عند نقطة معينة ؛بعدها ناول ما يحمل إلى أحدهم. فخطواته في طريق العودة غير غائرة في الأرض.

ظل حجاج يشم تلك الرائحة الخفيفة على مر مسارهم، وعندما رجع إلى المكان الذي بدأ منه، أيقن أن الرجل صاحب الشيء ذو الأرجل الثلاثية لم يكن يشم في ذلك رائحته، فالرائحة بادية منذ بداية الطريق،هنا ظن أن ذلك الرجل ينظر إلى شيء ثلاثي الأرجل، سار حجاج وراء الرائحة إلى جهة في المغارة لم يذهب إليها منُ قبل. تحسس بقدمه جزءًا بارزًا عن الأرض من قضبان قديمة "لابد أن عربات في الماضي كانت تمشي هنا" مشى فوقها بحذر حتى لا يفقد أثرها فهي طريقته الوحيدة لتجنب

الاصطدام بالجدران؛ إذ لابد لهذه العربات أن تعبر من منتصف النفق،غير أن الهواء كان راكدًا في هذه الناحية من المغارة.

سار حجاج مسافة يجهلها في الظلام،لا يرى شيئًا، ولا يسمع صوتًا ولا دليل له غير هذه القضبان التي تحت قدميه. لا يعرف إلى أين؟ ولا إلى متى؟ يسير هكذا على غير هدى، ومن دون تأكد إن كان يعرف طريقًا إلى الرجوع أم لا، فقط رغبة عارمة في السير وراء سراب ذلك الوحي.

تذكر أباه في تلك اللحظة وفكر وهو يتحسس القضبان في الصراط المستقيم، وهل عبره والده وهو أعمى؟ وتذكر يوم مات في مكانه دون أن يشعر أحد. كان مستندًا إلى الحائط ذاهلاً كأغلب أوقاته حيث يجلس بالساعات على هذه الحال، وعندما ذهب ليدعوه إلى الطعام، وجده ميتًا. لا يعرف إن كان قد مات لتوّه، أم إنه فقد الحياة من ساعات؟ اختفت صورة الأب من مخيلته لما لمح ضوءًا خافتًا بدا في نهاية الطريق، تبين حجاج أن الطريق ينحني يمينًا فيسقط النور على الجدران.

أسرع الخطى حتى اكتشف نور النهار في آخر النفق. صارت الخطوات المسرعة جريًا والأنفاس المتلاحقة محمومة وحدقة العين جائعة شغوفة، وإذا بالنفق ينتهي في فناء داخلي عرف فيه الفناء الخلفي لبيت الخواجة.

عاد حجاج إلى المغارة متخذًا نفس الطريق يفكر في الأمر حتى عاد للجدار الذي ظهر عنده الوحي، أتاه صوت مهدي على غفلة منه:

- غاير أنت مني لأن الله اختارني؟

- الله ما اختارك، بل هذا من صنع بشر.

- فيك غيرة قابيل من أخيه، وعُدت أخاف منك على حياتي.

صفع هذا القول حجاجًا فألجمه، ورحل من أمام أخيه فورًا.

وفي الليل بات الأخوان ليلتهما صامتين، كلٌّ فيما يعتقد. ينظران إلى سقف خيمتهما بلا حراك.

في الصباح، ذهب مهدي إلى جوف الجبل، أما حجاج فبقي في خيمته لا يبرحها.

عندما دخل مهدي إلى جوف الجبل، وجد العمال مصطفين أمام مدير الموقع وهو يسبهم بلغة لا يفهموها، لكن الغضب كان كفيلاً بأن ينقل إليهم تهديداته، حتى إن أحد المصريين - وهو مهندس من العاصمة - أراد أن يشرح لهم كلامه، لكن مستر "ريد" أسكته بحدة.

انتحى مهدي جانبًا دون أن يراه أحد، تسلل خلف الجمع حتى سند رأسه إلى جدار، جالسًا في الظلام هناك لا يكاد يدرك ما يعتمل داخله من أحاسيس. رغبة في البكاء تجيء وتذهب، عرق يتفصد من الجبين،أنفاس متلاحقة، نشوة باطنية تأتي من أعماقه خافتة، لا تكاد تلمس بدايات الحس، حتى يهزمها شعور قوي بالاندحار واليأس. داخله يقين بأنه سوف يموت هنا والآن، في ذلك المكان المظلم في هدوء ودون جلبة، بعيدًا عن الشمس والبحر وعن أهله، وحتى بعيدًا عن ذاته الممزقة. استسلم مهدي لهذا الشعور وتواترت أنفاسه، وعلا صوتها وانتابه إحساس بالعجز،

وشعر بأنه لا يستطيع الحركة ولا أن يرد هذا الدبيب الذي بدأ يسري في عروقه. تذكر ساعتها سلمى بجمالها الطيفي، وبرقت عيناه وهو يودعها في أعماقه، قفزت صورة والده إلى عقله، كأنها جاءت طافية مع أمواج الذاكرة، فتخيل أنه يستقبله وخلفه البحر الممتد بأمواجه الساحرة. أحسّ برذاذ الموج على خديه، وحرارة جسده أخذت في الركض نحو البرود. فجأة انتصب مهدي واقفًا من جلسته، ونفض كل الذي تحلق حوله من موت، فقد رأى "مستر ريد" واقفًا أمامه في صمت، رفع يده بالتحية دون أن ينطق ثم خارت قواه ووقع على الأرض مغشيًا عليه، أمر "ريد" ثلاثة من العمال أن يحملوه إلى سريره وعاد هو إلى المنزل. وعندما دخل إلى غرفته كاد قلبه ينخلع لما وجد حجاجًا في انتظاره مصوبًا بارودته نحوه ويأمره بالسكوت.

12

في المساء أيقظ حجاج أخية دون أن يشعربه أحد، وأشار إليه أن يتبعه فسار مهدي في صمت حتى ابتعدا عن مسامع الجميع، قال له: نرحل الليلة، فأجاب مهدي: لا والله ما نفعل حتى نشوف اللي يسويه الوحي، قال حجاج في رجاء:

مهدي لو يتحبني قوم معاي وأقولك إنه ما هو وحي.

بدا مهدي غير مصدق فأضاف حجاج: صدقني كلها تخاريف سوّاها الأجنبي.

شعر مهدي بالحيرة، فقبّله حجاج في جبينه قبلة هزّت مكامنه، وشده من يده حتى يتبعه، كان عقل مهدي مشوشًا تمامًا وهمته قعيدة، فبدا مستسلمًا وذهب خلف حجاج دون إرادة منه، وفى الطريق إلى بيت

"ريد"؛ رفع رأسه للسماء في عتاب ونظر للنجوم فبدت له ثقوبًا يطل منها نور اللـه، هكذا تخيلها في طفولته فابتسم في مرارة، أراد أن يصرخ ناحية السماء ويقول بكل ما لديه من صوت "لماذا لم تكلمني؟" لكنه لم يفعل، فقط سار خلف أخيه الذي شق الليل بخطواته، ولما وصلا إلى بيت "مستر ريد"، صعد حجاج إلى شرفة خلفية وعالج شباكها حتى انفتح وغاب في داخل البيت في حذر، وما إن غاب حجاج حتى هجمت الأسئلة على عقل مهدي، كيف يكون الإنجليزي هو سبب ظهور الوحي؟ هل يتصل باللـه؟ هل اللـه أوكله أن يفعل ذلك؟ وإذا كان اللـه قد أوكله؛ فما فائدة الوحي ذاته؟ لم يجد عقل مهدي أي إجابات فاستدعى من قاعه بعض الذكريات، ربما كي يوقف الأسئلة التي كادت أن تعصف به.

تذكر أول ما تذكر صالحًا الذي زارهم في قريتهم، وخرج معهم في رحلات صيدهم وكان يعزف ألحانًا ما سمعوا بها على أوتاره الخلّابة، لكن أكثر ما يذكره بصالح أنه قال ذات مرة؛ أن هناك ميثاقًا بين البحر وبين البشر، فالبحر لا يرزقهم إلا بقدر مايأخذ من أرواحهم: جهدًا ورجاء وأمنيات ووجد وإن خفتت لديهم تلك الطاقة الروحية، أخذ من البشر أنفسهم غرقى ومزق شباكهم وكسّر مراكبهم. قالت سلمى إن النسوة القاعدات يُرتقن الشباك يعرفن ذلك فيسألن في أهازيجهن "وقت إيش يابحر تشبع؟" لم يخطر في بال مهدي إلا في هذه اللحظة أن البحر يأكل منهم بقدر ما يأكلون منه، لا يعرف مهدي إن كان ذلك حقيقيًا أم لا

أيقظ مهدي من أفكاره؛ حجاج يحمل شيئًا ثقيلاً ويناوله إياه، كانت

آلة حديدية لها ثلاثة أرجل وصفيحتان مدورتان كبيرتان على جانبيّ صندوق؛ وكأنهما أذنان. حمل مهدي عن أخيه الآلة وانتظر حتى قفز من الشرفة وسارا في تلصص يساعدان بعضهما على حمل ذلك الشيء الثقيل ولما سأل مهدي أخاه عن الذي يحملاه؛ قال كلمة غريبة لم يفهمها قال: "فاستجراف أو ما شابه" قدر مهدي أن تلك الآله من المعدات التي يستخدمها "مستر ريد"، وأن حجاج أخذها انتقامًا من الرجل. كان الحمل ثقيلاً وهما يجريان صوب البحر بعيدًا عن المعسكر، حتى وصلا إلى الساحل فوضعاه على الأرض، وحفر حجاج حفرة عميقة بيديه العاريتين بينما مهدي يتذكر قبر العاشقيْن مرة ومرة يفكر في الغراب الذي علم الإنسان دفن الأشياء لإخفائها وعندما استرد مهدي عقله من بين يدي الشرود كان حجاجًا قد أتم دفن الآلة وعلم مكانها بحجر معقوف كزعنفة القرش. عاد الأخوان إلى المعسكر ليلملما حاجتيهما ويرحلا؛ فإذا بحرّاس يبحثون عنهما في أرجاء المعسكر، فأدركا أن الأمر قد انكشف. دخلا إلى الفناء الخلفي لبيت الخواجة ومنه إلى المغارة، وتاها من الحرس في الظلام، وسمعا طلقات نارية طائشة وأقدامًا تجري وراءهما.

سار الأخوان حتى وصلا الجهة الأخرى من المغارة، وقبل خروجهما، غطيا وجهيهما ببعض ملابسهما، ودفنا نفسيهما في قلب الفوسفات الخام في إحدى العربات الخارجة من المغارة. وعندما وصلت العربة إلى المخازن كانا قد احترقا من الفوسفات الخام، وكادت روحاهما أن تكونا على وشك الخروج، فقفزا من العربة، وهربا صوب البحر، ولما وصلا إلى الماء ألقيا جسديهما ليتخلصا من الحروق.

خرج مهدي من الماء وخلع ملابسه وعصرها جيدًا. بينما حجاج يحاول أن يغسل عينيه اللتين نال منهما الفوسفات، وأصابهما بحروق شديدة، على الرغم من أنه كان يغطي وجهه بالكامل، و لم يكشف غير شفتيه حين وضعهما في فتحة جانبية صغيرة في العربة، بعد أن نزع غطائها حتى يستطيع أن يتنفس. كانت تلك هي حيلة قديمة تعلمها العمال، فالعربات التي تخرج الرمال من المغارة بها فتحات على جانبيها، صممت تلك الفتحات لوضع خراطيم الماء فيها فالماء يستخدم أحيانًا في الحفر أو لإطفاء الحرائق.

انتهى مهدي من غسل عينيه لكنه لم يستطع أن يفتحهما تمامًا. خشي مهدي على أخيه من العمى، أو أن يصيبه شيء في عينه السليمة، فهجمت عليه ذكرى والده، لكنه لم ينطق بشيء. ترك مهدي حجاجًا ملقى على الأرض، والظلام يحل عليه ورحل ناحية المعسكر في حذر شديد.

شرد حجاج وهو على حاله هذه وتذكر يوم هدد "مستر ريد" بارودته حين سمع منه كلامًا غريبًا، كاد أن يقتله في هذا اليوم لكنه لم يفعل فاستعاد حجاج ما حدث يومها عندما قال له الرجل في هدوء:

"إن اسم أخيك هو الذي أوحى لي بهذه التجربة، فأنا أعرف أنكم في عقيدتكم تنتظرون شخصًا بهذا الاسم، وأنه سيخلص البشرية من الآثام والظلم، هل تعرف أن هذا المُخلص في عقيدتي الأصلية قد جاء بالفعل، جاء قبل مجيء النبي محمد، فلماذا تظنون أن مخلصًا آخر سيظهر؟"

وعندما لم يجد إجابة؛ قام من مجلسه وأكمل حديثه وهو يدور في الغرفة:

"لا أعرف قد تكونون على صواب في هذا الأمر، أنا شخصيًا أعتقد أن البشر يحتاجون مخلصًا كل ألف عام. تعرف يا حجاج، أنا قرأت القرآن الكريم والكتب الإسلامية جيدًا، ألم تلاحظ أن كلام الوحي -وأنت سمعته -كان قريبًا من روح الديانات كلها؟ تعرف يا حجاج أني لاحظت أن الديانات فصلت اللغة، واستأثرت كل ديانة بمفردات وتركيبات معينة"

التقط عصا حديدية من جانب المدفأة، ثم قال مشيرًا إلى حجاج بها:

حجاجٍ دعك من هذه البندقية التي في يدك واسمعني جيدًا ثم أكمل كلامه قائلا:

"سأعطيك مثلاً: لفظة مثل لفظة الله في مصر موجودة عند المسلمين للإشارة إلى الخالق، وعند المسيحيين هي الرب، تقولون عن الإثم ذنبًا ويقول المسيحيون عنه خطية، هل لاحظت الفرق، وأنتم تعيشون في البلد نفسه وتتحدثون اللغة نفسها؟"

جلس الرجل على مقعد مقابل، وصب لحجاج بعض الماء ومده نحوه وهو يقول بينما حجاج يشرب في حذر:

"هل تريد أمثلة أخرى؟ مثلاً: هدية من الله، تسمونها هبة وعند إخوانكم، هل تسمح أن أقول إخوانكم؟"

وقبل أن يهز حجاج رأسه قال: "هدية الله عند إخوانكم المسيحيين يسمونها عطية".

قام مرة أخرى من مجلسه وهو يقول: على أي حال، لن استعرض ما عرفته عن بلدكم، لكني أردت أن أشير لك إلى اللغة التي صغت بها كلام الوحي، ولكن لنتجاوز هذه النقطة، فأنا غير متأكد إن كنت تفهم من كلامي شيئًا أم لا؟ هناك نقطة أود أن أوضحها لك قبل أن أكشف لك عن السر الذي جئت من أجله؟ وهو أن هناك شيئًا آخر دعاني لاختيار أخيك من أجل التجربة، هو أني علمت عنه أنه درس في الأزهر قليلاً، كان هذا ضروريًا لأن حصوله على قدر من العلم سيخدم التجربة.

تحرك من مكانه وذهب لآلة لم يشهد مثلها حجاج في حياته.

عندما تذكر حجاج ذلك غرق في موجة من الضحك، ثم توقف عن الضحك فجأة، ووجم وجومًا شديدًا. إذ تخيل أخاه وغضبه حين يسمع هذا الكلام، وأحس بالحزن والوحدة ولام نفسه على ضحكه الذي قد يكشف مكانه. ذهب أخوه إلى المعسكر، وهو هنا لا يكاد يرى شيئًا مطاردًا وهاربًا في هذه البقعة. ماذا لو هاجمه ذئب، أو ثعبان، وهو على حاله هذه؟ ماذا لو قبضوا على أخيه وقتلوه؟ أي لعنة هذه التي أصابت اليتيمين؟

أما مهدي فقد تلصص قرب حظيرة الغنم والجمال، حيث إنه توقع أن الإنجليز أخذوا الجملين اللذين أتيا بهما هو وحجاج إلى هنا؛ أخذوهما ليمنعا الأخوين من الهرب، غير أنه لم يجد لهما أثرًا في الحظيرة، وسمع من أحد الخدم أنهم نحروا الجملين منذ وقت قليل؛ فحزن على ناقته، أمسك إحدى الغنمات بعد كر وفر، وارتمى تحتها يرضع لبنها. لم يشرب

اللبن على الرغم من عطشه الشديد؛ بل جمع اللبن في فمه دون أن يبلعه؛ ثم هرب من الحظيرة وتوجه ناحية أخيه.

كان حجاج لا يزال على حاله؛ يحاول أن ينصت إلى أي حركة مريبة، فجمع بعض الأحجار دون أن يراها، ورصها بجانبه، ليقذفها في وجه من يريد به أذى. فجأة سمع صوت أقدام تركض نحوه فنادى على مهدي، لكن أحدًا لم يجب، ففزع وقام من رقدته، وأخذ يجري بلا هدف، وعينه لا تكاد ترى. الخطوات اقتربت، وأمسك شخص به، وأوقعه على الأرض. حاول أن يتخلص منه، فقيّد الشخص حركته، وجلس على يديه ليشلهما عن الحركة، شعر حجاج بالرجل يحاول فتح عينه بالقوة، وحجاج يكاد يموت رعبًا، وعندما تمكن الشخص من عينه، وجد سائلاً يصب فيها؛ فظن أن التعذيب قد بدأ، وأنه سيفقد البصر تمامًا، ثم فتح الشخص عينه الأخرى بالقوة، وصب سائله فيها حتى إذا فرغ سمع صوت مهدي يطمئنه، أخذ حجاج يضرب أخيه على ما سببه له من رعب، قال له مهدي: إن فمه كان مليئًا بلبن الغنمة، وإنه قطر له في عينه لتشفى مما أصابها. استغرقا في نوبة ضحك شديدة. افترشا الرمال واستلقيا من شدة التعب، ولما استرد حجاج أنفاسه قال متغنيًا:

"كنت فـين يا حلـو غايب عـن عيـوني من زمـان؟"

فرد مهدي متبسمًا:

"سرقتـك الصحبة منـي وحرمـت عينـي المنـام
وسـألـت الصـاري عنك خـبرتـنـي بـالـرحيـل
كيف أعيش مـن بعدك إنت بعـدك إنت يـا جميل.

وظلا يغنيان بلا حذر ولا خوف من أن يسمع غناءهما أحد. كان الغناء قادمًا من روحيهما، وما استطاعا التوقف عنه، وكأنهما مدفوعان إليه. مرت لحظات النغم، وسطا النوم على جفونهما فصارت الألحان همهمة حتى اختفت، واستسلما لنوم عميق.

قرب الفجر استيقظ حجاج وفتح عينه فرأى نور الفجر يكاد يبزغ، فاطمأن على عينه السليمة، وقام من نومته وسار قليلاً على شاطئ البحر، وعندما أنارت الدنيا قليلاً، وجد بعر جمل على الأرض، فتلمسه، وحين وجده لينًا عاد سريعًا إلى مهدي وأوقظه، قال له:

- هيا بنا نرحل قبل ما يصحى المعسكر.

نرحل كيف ؟!! مشي.

لا، هناك جمل قريب.

وكيف عرفت؟

- قصيت الأثر.

فرح مهدي عندما تذكر ما أصاب عين حجاج؛ فاحتضنه وسارا متتبعين خطوات الجمل حتى لمحاه على البعد.

- عسكري هجانة.

- وكيف ما شافنا؟

- مر بنا في الظلام.

- والجمل كيف ما شافنا؟

لا أعرف.

وجريا خلف الجمل. تقدم حجاج واختبأ خلف تل صغير، ثم فاجأ الهجان وأناخ الجمل، في الوقت الذي انقض فيه مهدي على الهجان وأطاح به أرضًا، وهمَّ أن يدق عنقه بإحدى الصخور، لكن حجاجًا تقدم ليقيد الهجان بحبل كان في حقيبته، وعندما أتم تقييده ركبا على ظهر الجمل، واتجها إلى الموقع الذي دفنا فيه الآلة وأخرجوها من التراب واتجها نحو الشمال.

في طريقهما للهرب عند صالح؛ صديقهما القديم، سأل مهدي أخيه عن هذه الآلة، فلم يجب حجاج إلا بأنها غالية جدًا على "مستر ريد" وأنه بفقدها سيتطهر من كل شروره وأضاف حجاج إن كان الوحي حقيقيًا سيظهر له في أي مكان يذهب إليه، لكن الآن يحسن بهما أن يبتعدا عن هنا وليذهبا إلى صالح ويتفكرا أمرهما هناك. هزّ مهدي رأسه متظاهرًا بالموافقة، لكنه كان مرتابًا من كلام أخيه.

وعندما وصلا إلى موضع الغردجية بحث مهدي في متاع الهجان عن شاي يشربانه فلم يجد إلا بعضًا من القات فأناخ الجمل وجلس مضجعًا على الأرض بجانب أخيه، حاول حجاج أن يخبر أخاه عن سر الوحي لكنه لم يجد مبتدأ للكلام وبعد لحظات من الصمت لفتهما ذكّر مهدي حجاجًا باليوم الذي رميت فيه زوجة حمود وعشيقها في الصحراء، واعترف له أنه ذهب خلفهما كي ينقذهما، وسار في طرق عرجاء، وربط

ذيل الناقة بحبل، وعصب عينها اليسرى، ليخدع حجاجًا، فيظن أنها عوراء مقطوعة الذيل فلا يعرف أنها ناقته، فقد كان متأكدًا أنهم سيطلبونه لقص الأثر. تبسم حجاج مستغربًا لهذه الحيلة.

أكمل مهدي بأنه عندما اقترب منهما، وجد شخصًا ينظر إليهما وهما يمارسان الحب في العراء، لكن وقفة الرجل كانت لا تدل على أنه يريد خيرًا. وعندما اقترب منه مهدي، وجده بائع الزجاجات الزرقاء، الذي ادّعى أنها سم المضاجعة الذي أعطته العرافة لسلمى، ولما لاحظ الرجل وجود مهدي، هجم عليه دون سبب، قائلاً إنه هو الذي وجدهما، وأن المرأة من حقه هو، وسيأخذها على حصانه ويرحل من بلدتهم، فحمل عليه مهدي حتى تمكن منه وأفقده حركته. ولما صار فوقه استجوبه وسأله لماذا فعل ذلك؟ فقال له الرجل إن حمودًا هو الذي شاركه في هذه الفكرة، ليقضي على أسطورة سم المضاجعة نهائيًا؛ حيث إنه رأى أن مجرد وجود الفكرة سيجعل الفتيات يتجرأن ويتمادين في العشق.

سأله مهدي: لكنكم أحييتم هذه الخرافة، ولم تقضوا عليها. قال الرجل: كان ذلك جزءًا من فكرة حمود، حيث إن الجزء الأول يقضي ببيع هذا السم بأغلى الأثمان، وعندما ينتشر بين الناس وتشتريه الفتيات، نخرج على الناس بترياق له نبيعه لهم بأضعاف ثمن ذلك السم، وبذلك نكون قد حققنا أرباحًا وقضينا على الفكرة نهائيًا. وفي الحقيقة لا هذا سم ولا ذاك ترياق.

أتم الرجل كلماته، فإذا بمهدي يجد الرجل شاهرًا خنجره في رقبته،

لا يدري من أين جاء به، ولا كيف فك إحدى يديه من قبضته، فضرب مهدي رأس الرجل بفرع شجرة؛ كان على مقربة منهما، وتفادى طعناته التي طاشت في الهواء باحثة عن رقبته. فزع مهدي عندما وجد الرجل ينزف من عينيه، ثم أسلم الروح. التفت إلى العاشقيْن فوجدهما قد فرغا من الحب، وبدآ يصرخان بشدة لا يدري لماذا؟ الموت والصراخ أصاباه بنوبة من الفزع والبكاء، فأخذ ناقته وعاد، تاركًا حصان الرجل على مقربة من العاشقين، لعلهما يهربان به، لكن يبدو أن الحصان هرب فزعًا على صاحبه فماتت "مدينة" وحبيبها.

بدت الدهشة على حجاج و لم تذهب، حتى بعد أن أتم مهدي حكايته، لكنها تحولت إلى حيرة عندما تكلم مهدي بعد لحظات صمت طويلة.

- تصدق؟

- قولك صادق.

- هادا قول العرافة.

- عرافة من؟

العرافة اللي قالت: ارحموا اللي ضاجع الصبية في العرا والشمس، إيش قولك؟

لكن حجاجًا لم يقل شيئًا، إذ أدرك أن النبوءة بدأت تتحقق. لم ينتظر مهدي ردًا من أخيه، وغرقا في بحر من الصمت.

حاول حجاج مرة أخرى أن يحكي لأخيه عما دار بينه وبين

"مستر ريد" لكنه سكت لما رآه يحدق في السماء كعادته نظر إلى الآلة التي أخذوها معهما وتنهد وركب الجمل وراء أخيه وأكملا طريقهما.

سأل حجاج نفسه لماذا لم يقتل الرجل، لماذا لم يعتبره ذئبًا كذئاب صالح، لكن القات الذي بدأ يلعب في عقله استدعى صوت "ريد" وهو يقول له:

"والآن إليك هذا الاختراع، إنها آله جديدة ستغير حياة البشر على هذه الأرض. إنها تعرض الصور بسرعة كبيرة، وعلى مساحة واسعة تكاد تكون عشرين ضعف الحجم الأصلي. وتعرض الصور بسرعة تجعلك تظن أنها تتحرك أمامك. إنها تمثل عصرًا جديدًا يا صديقي، واختراعًا لم يسبقني إليه أحد. أنا أعلم أن الفرنسيين يجرون تجارب على شيء مشابه لكنهم لن يسبقوني.

أرى خليطًا من ملامح الحزن والغيظ على وجهك؛ ولا أجد سببًا لذلك. صدقني إنه يجب عليك أن تفرح؛ أعرف أني سببت لك ولأخيك بعض الآلام لكني سأعوضكما عن كل شيء"

صمت قليلاً ليعطي كلماته وقتًا كافيًا كي تتحلق كالعنكبوت حول عقل الفتى، وعندما شعر أن حجاج يحاول النطق، قطع عليه الطريق وقال:

"تعرف يا حجاج، أنا أحب هذه البلاد، وكنت في أسوان قبل أن آتي إلى هنا. هل تصدقني لو قلت لك، إنهم هناك كانوا يشعلون ماكينة القطاربالمومياوات، يقذفونها على إنها وقود لتلك العجلات.

يوقفون عجلات التاريخ؛ ويحركون آلة بخارية بغيضة. لعلك تريد أن تسألني لماذا جربت الفاستجراف –هكذا سميت اختراعي لأنه يحرك الصور بسرعة– نعود إلى السؤال، تراني لماذا جربت الفاستجراف بهذه الطريقة بالذات؟ سأقول لك أن كل ما أردت أن أعرف تأثير ذلك على البشر، وإلى أي حد سيصدقون ما يرون؟ وإلى أي حد سيأخذ بألبابهم ؟

أراهنك؛ إنك صدقت إن أخوك نبيًا، وأن اللـه سيرسل إليه رسالة من أجل البشرية. ولعلك الآن حزينٌ لأن ذلك لم يتحقق، وأنا أقول لك يجب أن تفرح لأن اللـه أرسل له رسالة فعلاً؛ من أجل البشرية جمعاء. تخيل معي ما يمكن أن يحدثه هذا الاختراع في العالم. إنه ثورة حقيقية؛ سيخلصنا من همومنا وأوجاعنا. إنه سيوحد أحلامنا. ألا تحلم في منامك يا حجاج؟ أنا أيضًا أحلم وأخوك في المعسكر يحلم، ولكن لو استطعنا أن نرى الحلم معًا فسيكون أفضل كثيرًا، الإغريق يا صديقي – لست متأكدًا إن كنت تعرف شيئًا عن الإغريق – ولكن على أية حال هم، أناس بهروا العالم باختراع المسرح، وأنا سأبهرهم بالفاستجراف.

الفاستجراف سيكون المخلص الجديد. افرح يا صديقي؛ لأن أخوك فعلاً هو المهدي المنتظر، سامحني يا حجاج كل ما أردته كان خيرًا صدقني

تمتم حجاج بصوت مسموع: كل ما أردته كان خيرًا صدقني وعندما سأله مهدي عن ذلك قال له: لا شيء، وعاد الصمت والقات يدغدغان رأسيهما ويضعهما بين اليقظة والنوم.

13

أما مصير القرية فقد لحقها الخراب، بعد أن دخلها الإنجليز؛ باحثين عن مهدي وأخيه؛ فهدموا البيوت، وشردوا أهلها، وعبروا المجرى المائي بمراكبهم، وصعدوا إلى البيوت التي على التل المائل، والتي التقى فيها مهدي بشيخ الصيادين أول مرة، فلم يجدوا فيها أحدًا، ولا أثر لحياة، فتركوها، وأخذوا السكان، وبنوا لهم خيامًا على بعد خمسين ميلاً من مكان قريتهم الأولى، في مكان صحراوي يطل على البحر ليس فيه أثرًا لحياة؛ غير شجرة تقف وحيدة في الصحراء تظلل على قبر مجهول للإنجليز، لكن أهل القرية يتذكرونه جيدًا، ويذكرون ما قالته العرافة الأولى عنه.

طلبت سلمى من العسكري الإنجليزي أن يبني خيمتها تحت هذه الشجرة، وجلس الجميع في خيماتهم يتحدثون عن نبوءة العرافة الأولى، وعن العرافة الثانية، ويتساءلون: هل ما لحق ببلدتهم هي لعنة العرافة،

أم أنها لعنة الوحي؟ كان بعضهم متعاطفًا مع مهدي وقصته الطويلة، وبعضهم الآخر يحمّله الخراب الذي حل بالقرية.

جلست سلمى في خيمتها تفكر في العاشقيْن اللذين ماتا في أحضان بعضهما. وفكرت في مهدي العائب الهارب من بطش الإنجليز، وفي ما عانى من أهوال؛ فرقّت لحاله، وخطر لها أنه ربما لا يرجع ثانية. فخافت عندما داهمها هذا الخاطر، وخافت أكثر من أن يكرهها أهلها -إذا طال غيابه- على الزواج من غيره. فضمّت كتفيها وكأنها تحضن نفسها، وبدت وكأنها تخاف على جسدها من سطوة التقاليد. دسّت سلمى يدها في حاجياتها، وأخرجت الزجاجة الزرقاء. نظرت إليها في شغف، وكأنها تنظر إلى وجه مهدي نفسه. لمحتها أمها من على بعد خطوات، وهي تعد نار "العصلة" التي يجلسون حولها هربًا من برد الشتاء. تأملت انفعالاتها الصامتة، ورأتها وهي ترتشف شيئًا؛ فأسرعت نحوها خوفًا من أن تنتحر البنت، وعندما اقتربت منها عرفت الزجاجة التي أعطتها العرافة إياها، وعلى الرغم من أنها اندهشت لوجود هذه الزجاجة معها كل هذا الوقت، إلا أنها احتضنتها لما أحست بمعاناتها.

سار الخبر بين السكان وتناقلوه من خيمة إلى خيمة، وحزن الناس على سلمى التي كتبت على نفسها ألا تصلح إلا لمهدي، وأنها ستعيش بينهم فيرونها تذبل كالوردة المقطوعة؛ فمهدي لا يعرف أحد إن كان حيًا أم ميتًا.

على الرغم من ذلك الحزن الذي أصاب الناس، فإن فرحًا باطنيًا كان

يحدوهم، وذلك لأن سم المضاجعة حقيقي، ونسي الناس أن ذلك سيحرر البنات من قبضة أهليهن، وفرحوا لأنهم وسط هذا القهر والأوامر التي تتنزل عليهم ليل نهار؛ مازال شيء من هويتهم موجودًا يقاوم داخلهم، وصار ما كانوا يرفضونه بالأمس، يشعرون بانتمائهم إليه اليوم.

14

جلس صالح في خيمته يشرب الشاي الجبلي، بعدما مضغ من القات ما استدعى في عينيه كل الألوان. الألوان التي تتشكل كما العقل اتفق في أطياف ساحرة، والحقيقة أن صالحًا كان يجتر ذكرياته كل يوم بطريقة مختلفة، فمرة يجد شخصًا يسامره طوال الليل، ويحكي له ما وقع من أحداث في حياته؛ وبعد أن يتم حكايته؛ يكون الرجل قد أتمّ تلاشيه تمامًا، ومرة يرى تلك الذكريات في صفحة الماء، ويجلس يشاهدها بدهشة، وكأنما يشاهدها لأول مرة، وأحيانًا يستمع إليها تخرج من فم البرّاد، وهو يصفر على النار.

لم تكن أشباحه قد حضرت بعد، ولا هلاوسه تعنكبت حول رأسه المسكين، كل الذي حدث أنه طفق يبكي دونما سبب واضح، وأخذ يتأمل خيمته من الداخل؛ باحثًا عن شيء خفي حوله أو في داخله؛

لا يعرف بالضبط. كانت هذه هي خيمته الجديدة التي تبعد عن خيمته الأولى بعشرين عامًا، تبعد عنها بعد أصفر الصحراء عن أزرق البحر؛ فصالح هذا بعد التهام الذئب لولده عابد، طلق امرأته وأعادها لأهلها، وهجر الصحراء والرعي إلى البحر والصيد. تعلم الصيد على يد حجاج، وعاش في رحاب الزرقة خمسة أعوام، تعلم فيها فنون الصيد بالشباك والحراب، كان يهوى اصطياد الإستاكوزة في الليالي، عندما كانوا يضيئون المشاعل، ويمشون منتعلين أحذيتهم فوق الشعاب المرجانية يبحثون عن ذلك المخلوق الأحمر، الذي ما إن ير ضوء المشاعل، حتى يتجمد في مكانه بلا حركة. قال له حجاج إن العمى يصيب الإستاكوزة في ضوء المشاعل، وإنك يجب أن تسلط عليها الضوء، وتميل بالشعلة برفق حتى تقترب من الماء؛ عندها تنقض بيدك الأخرى في سرعة على ذيلها، وترفعها بسرعة، قال له وعينه الخضراء تلمع في ضوء الشعلة: إنك لو أخطأت الإمساك بذيلها بإحكام؛ خسرت أصابعك، ولو تركتها تهرب، فستهاجمك، وربما تصطدم بساقك في طريقها إلى الهرب فتسبب لك جروحًا عميقة، أو توقعك على الشعاب المرجانية في الليل، وتكون قد نالت منك وخلقت منك أضحوكة للصيادين سنين طويلة. يذكر صالح كيف عاش تلك السنوات، ثم رحل في العام الذي ظهرت فيه عرافة الغردجية، وانتهت به الحال إلى هنا؛ إلى تلك الخيمة الجديدة، التي لا تسكنها معه سوى الذكريات.

البحر المفتوح أمامه والصحراء خلفه وبارودته التي لازمته، وجرت على حياته خرابًا بقدر ما احتمى بها، مسنودة في الركن هناك، تجترّ مثله

أحداث حياتها. اعتاد صالح أن يرى في النجوم ضحكة عابد، ويتذكر يوسف الذي احترق في عمر شهرين؛ لما سقط الوابور على فراشه، والأم البائسة كانت وراء الخيمة، مشغولة -جزاها الله- بإزالة الشعر عن جسدها؛ مستخدمة عجينة سكرية، هكذا في العراء دون خوف؛ فالصحراء المفتوحة الخالية من المارة ستر وغطاء، أدرك صالح بعدها بسنوات؛ أن كل الحوادث التي حدثت لأولاده كانت بسبب المرأة، وليكن أكثر دقة فقد تزامنت مع غفلة سببها الاهتمام بالجسد، فهجر صالح النساء كلها والصحراء نصفها، واختار أن يعيش على ضفاف البادية وأطراف البحر. هنا في هذه المنطقة البعيدة عن كل شيء إلا الوحدة.

اختلاف واحد طرأ على حياته؛ هو أنه يتلقى راتبًا آخر الشهر؛ نظير وحدته تلك وانعزاله عن العالم. كانوا من يمنحونه الراتب هم هؤلاء المسؤلين عن ذلك الجسر الإسمنتي الممدود في البحر بطول يقارب خمسين نخلة، والمعقوف كالصنار في آخره؛ تلك العقفة العريضة التي تقف عليها البريمة التي تصلي ليل نهار كالملائكة. هكذا أطلق عليها في يومه الأول هنا، ثم عرف بعد ذلك أنها تخرج الزيت من البحر، وعندما سأل أحد الذين يأتون كل بضعة أشهر، عن ذلك السائل الغليظ؛ قالوا له إنه أتى من تحلل الأموات، فهمّ بالمغادرة قائلاً: أنا لا أشارك في نبش القبور، لكنهم هدأوا من روعه وكذبوا عليه حتى يقبل أن يعمل حارسًا على تلك البقعة النائية، وظل يقف على حافة الجسر ينادي على صيادين في مراكب بعيدة، لكنهم أبدًا ما ردوا عليه سلامه ولا نداءاته، وظل رجلاً ثقيل الظل يأتي إليه كل شهر؛ يعطيه راتبه، وبعض الطعام والفراخ الحية.

تلعب الفراخ حول الخيمة، فتأكل الثعالب نصفها، ولا يكاد يأكل هو النصف الآخر. حتى انقطع ذلك الرجل عن المجيء، فنفدت المؤن وصار صالح لا يشرب إلا الشاي، ولا يمضغ إلا القات، وينتظر دون جدوى.

لا شيء يخيفه في تلك الوحشة غير شبح الماضي، وغير هلاوس حقيقية بدأت تتبدى أمام عينيه: غنمات وهمية، عابد في سن العشرين، وزوجات عديدات؛ ما إن يخلع عنهن جلابيبهن، حتى يكتشف أن لهن ذيولاً كذيول الذئاب. في البداية أزعجته تلك الهلوسات، ونغصت عليه منامه، غير أنه بمرور الأيام استأنسها واطمئن لها، وصار لا يحيا إلا بها، ولا يبتسم إلا إذا جاءت.

بيد أنه رأى في هذه اللحظة ما هز كيانه بعنف، رأى رجلاً يوسوس إليه بضع كلمات لم يسمع منها شيئًا، غير صوت كالفحيح. رجل جميل الطلعة طيب الرائحة؛ منعه خوفه من أن يلتفت إليه أكثر، ودون أن يحرك رأسه إلى جانبه؛ خرج صالح من الخيمة مرتعدًا، تاركًا الرجل فيها. وقف على بعد خطوات وأنفاسه متلاحقة، نظر إلى البحر أمامه، وكأنه يسأله عما إذا كان ذلك حقيقيًا، ولما لم يجد إجابة، استدار ونظر ناحية الخيمة، واقترب ببطء شديد مادًا أطراف عينيه إلى بابها، يبحث عن ذلك الرجل، متمنيًا ألا يجده ينغص عليه وحدته، لكنه وجده هناك جالسًا وحوله أطفال صغار يشبهونه كثيرًا، وكأنه كان يحكي لهم أو يعلمهم شيئًا. لكنه ما سمع من كلامهم ولا كلمة واحدة، فارتد صالح راجعًا إلى الخوف، من هذا الغريب؟ ومن هؤلاء الصغار الذين حوله؟ ومن أين أتوا؟ وما الذي

كان يوسوس به إليه؟ أيكون هذا إبليس؟ في الحقيقة لم يسأل صالح نفسه أيًّا من هذه الأسئلة، بل بدا إنه غير مبال، أو غير مصدق لما رأى. ربما لأن المسافة بين الوهم والحقيقة تلاشت لديه، وربما لأنه قال لنفسه: ما الضرر لو كان ذلك هو إبليس؟ ماذا يستطيع أن يفعل به؟ هل يخرجه من هنا كما أخرج آدم؟ فليكن، فأي مكان سيكون أفضل من تلك الوحشة، ومن ألم الذكريات تلك، حتى إن كان السعير ذاته. ربما قال ذلك لنفسه، لكنه لم يقل، بل بدا طبيعيًا جدًا على عكس ما كان عليه منذ لحظات. ذهب ليتجول على الجسر باحثًا عن تميمته، وسر احتفاظه بهذه الوحدة، وصبره على ذلك كله، وكأنما أراد أن يحتمي بها. وعلى طول الجسر وهو في طريقه إلى مراده؛ هناك قرب آخر الجسر. رمى شباك عينيه في البحر الذي تعلم كيف يقرأ صفحته، ويغوص إلى شعابه ورماله البيضاء. فيرى الأسماك بلون الفضة الداكن، وهي ترعى في حشائش البحر كرعي الغنم. عرف ألوانها ورفرفت روحه لقدوم أسرابها في مواقيت ثابتة.

كل يوم يجلس على حافة الجسر، يعد الأسماك كما كان يعد غنماته فيما مضى، ويعييه من زغللة الماء عدها، فيعيد الحساب من جديد. غير أنه قد تغيرت عاداته منذ ذلك اليوم الذي وجد فيه ما غيَّر حياته كلها، فلم يعد يقنع بعد ذلك بعدِّ الأسماك. صارت له هوايات أخرى يمارسها. حدث ذلك منذ فترة وفي يوم شديد الصفاء حينها لمح صالح شبكة صيد حقيقية وقد جرفها التيار إلى حافة الجسر، تهللت روحه وكأن زائرًا عزيزًا أتاه، ورفرفت عليه ذكرى حجاج، فقرر أن يحضر الشبكة مهما كان الثمن، لكن الماء عميق في هذه الناحية، والأمواج تصفع جسم الجسر بعنف

وعداوة. بحث عن سيخ طويل معقوف كالصنار حتى وجده، ومده في الماء في اتجاه الشبكة، وبصعوبة شديدة استطاع أن يمسك بطرفها، غير أن الشبكة اهتزت بعنف في يديه، وعندما بدأ يجرها؛ أحس بثقل شديد يقاومه. بل كأن شيئًا خفيًا يشد بضراوة طرفها الآخر. استجمع صالح قواه وأخذ يشد الشبكة، وكلما شد بعضها؛ كبرت مقاومة البعض الآخر، لكنه وسط هذا العنف الذي احمر له وجهه، وانتفخت عروقه؛ لمح جسمًا بين الفضة الداكنة والزرقة، ممتدًا طويلاً عنيفًا في مقاومته، ملتفًا بالشبكة، عازمًا على ألا يتركها له. اشتدت عزيمة صالح وحمل على نفسه حتى اقترب الجسم من الجسر، وإذا به قرش عظيم عينه الباردة تكاد تثقب الماء. أدرك صالح أنه لن يستطيع رفع ذلك القرش العظيم إلى الجسر؛ فربط الشبكة في عمود من الصلب على الجسر، واستلقى على ظهره يلتقط أنفاسه. وبينما هو كذلك، لمح مولد الكهرباء الذي يغذي البريمة وحوله السور الحديدي العالي. استخدم صالح البريمة كرافعة حتى نفذ فكرته الجهنمية. ألقى صالح السور الحديدي في الماء بجانب جسد الجسر حتى صنع منهما قفصًا حديديًا محكمًا حول القرش. وباستخدام السيخ المعقوف، أخذ يمزق الشبكة من حول القرش؛ حتى حرره من فخ الشبكة ليطلقه في سجن القفص.

وصل صالح إلى مكان مزرعة الموت التي صنعها عند انحناءة الجسر. أخذ نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى القرش المحبوس، ويتذكر كيف كان يطعمه كل يوم مما يصيد له من أسماك، وهو في قمة سعادته، أخيرًا عاد إلى مهنة الرعي، لكنه اليوم يرعى قرشًا قويًا لا خرافًا ضعيفة جبانة. وأدرك لأول

مرة لذة أن ترعى مخلوقًا قويًا مخيفًا، تلقي له بالأسماك الحية فيمزقها في لحظة.

لكن تلك السعادة بعد فترة ذهبت عنه، ولا يعرف سببًا لاختفائها. نظر إلى القرش وتأمله بعينه الباردة وأسنانه الحادة. أدار وجهه ناحية الخيمة، لم يكن يبحث بعينيه عن الرجل الذي رآه مع الأولاد؛ فقد كان قد نسي ذلك تمامًا، فلم تعد ذاكرته تعمل بالشكل المعروف، بل صارت أشبه بأموج البحر، تسرع حينًا وتبطئ حينًا، ويمحو بعضها بعضًا. لكنه فجأة تذكر الرجل الذي يأتي إليه كل شهر حاملاً معه مؤنًا وزادًا؛ يكفيانه لثلاثين يومًا. تذكر أنه مشى معه على هذا الجسر، وتفقد البريمة، ورأى مولد الكهرباء بلا سور حوله، ترى منذ متى لم يأتِ هذا الرجل؟ لم يعد صالح يذكر، كما أنه لم يعد متأكدًا كيف وقع ذلك الرجل في قفص الموت هذا. هل هو الذي دفعه بكعب البندقية؟ هل كان يريد أن يطعم القرش لحمًا بشريًا؟ ألم يأت الرجل هذا الشهر؟ لم يعد صالح قادرًا على الإجابة. غير أن شيئًا حدث أخرجه من دوامة الأسئلة: يد رقيقة امتدت إلى كتفه، فالتفت إلى الوراء، ليجد أنها زوجته بوجهها الصبوح ونظرتها المغوية. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ وكيف اهتدت إلى مكانه؟ سألها: هل جاءت وحدها؟ لم تجب عليه، بل ارتمت في أحضانه، فاعتصرها وكأنما يداوي جراحه بها. كان عقله غائمًا تمامًا، والنشوة تملكت منه، لكنه تذكر هلوساته السابقة، وكيف أن كل النساء كانت لهن ذيول كذيول الذئاب. دس يده أسفل جلبابها، وتحسس أسفل ظهرها، ولما لم يجد لها ذيلاً، انهمك في تقبيلها مدركًا أنها ليست وهمًا كما ظن. ولما كاد يلج إليها،

سمع صوت عابد ولده يستغيث؛ فرفع رأسه عنها، ليجد الولد في الماء والقرش يكاد يفتك به؛ فقام عنها وقفز إليه، لكنه ما وجد الغلام في الماء، ولا المرأة على الجسر؛ فغاص إلى الأعماق بفعل القرش أو بغيره، وعندما غربت شمس ذلك اليوم لم تبق إلا الخيمة واقفة في الظلام.

15

وصل مهدي وحجاج إلى الخيمة الخاوية، دخلاها فوجدا كل شيء في مكانه، لكن صالحًا لم يكن هناك. ذهب حجاج ناحية البحر يبحث عن صالح وينادي عليه، بينما جلس مهدي في الخيمة بعد أن أناخ الجمل.

رجع حجاج إليه بعد أن أعياه البحث، جلس حجاج إلى أخيه.

قال مهدي: تظن أن الوحي يأتيني هنا في البراح.

قال حجاج: ما أظن.

اندهش مهدي لإجابته وقبل أن يتفوه استجمع حجاج قواه وبدأ فى الكلام، حكى لأخيه كل ما دار بينه وبين الرجل الإنجليزي. ثار مهدي وأخذ يضرب أخاه وحجاج مستسلمًا له، بكى وصرخ ووضع رأسه في التراب وانهال على الفاستجراف بباروده صالح حتى تهشم الاثنان، وأخذ يهذي حتى راح في النوم.

في الصباح، استيقظ حجاج وقفز إلى رأسه سؤال فور انتباهه: لماذا لم يقتل "مستر ريد" حين قال له ذلك وكيف استطاع الرجل بكلامه الغريب أن يفلت من يده ولماذا اندحر هكذا أمام منطق الرجل وهو القوي وذهب عنه مهزومًا. لو كان قتله كان شفى غليله وغليل أخيه، لكن حجاجًا لا يعرف أنه بسرقته للفاستجراف أمات الرجل فعلاً من الحزن على آلته. صعد "مستر ريد" إلى التل المائل مع الجنود وكله أمل أن يجد آلته المسروقه، وعندما لم يجدها ترنح وسقط من فوق التل، لو قص أحدهم على مهدي قصة موت الرجل الإنجليزي، لتخيل مهدي أنه وقع من فتحة الجدار التي كانت في بيت شيخ الصيادين، لكنه لم يسقط منها.

توقف حجاج عن التفكير وسأل نفسه بصوت مسموع: أين ذهب صالح؟، هل ذهب لصيد أرنب بري بعد أن نفد منه الطعام؟ لكن بارودته هنا في الخيمة. دار حول الخيمة فوجد آثارًا قديمة للعربة التي تأتي بالمؤن، لكنه قدر أن هذه الآثار مر عليها شهر أو أكثر. هل رحل صالح معهم لكن رماد الفحم الذي وجده في ركية الشاي، لم يمر عليه أسبوع. ترك حجاج أخاه نائمًا وذهب يبحث عن صديقه.

وبينما مهدي كان نائمًا، رأى ضوءً بازغًا يكاد يعمي بصره، تبين بعد لحظة؛ أنه جسد طويل تكاد تصل الخيمة إلى كاحله. تسارعت أنفاس مهدي، وأغمض عينيه وقال لنفسه: لا ليس ثانية، هل أفقأ عيني كي لا أرى هذه الرؤى مرة أخرى، وهمّ أن يفقأ عينيه، لكن يدًا ربتت على كتفه، وأوقفته، فنظر خلفه في رعب، وإذا بصالح يشير إليه أن ينظر إلى ما تبدا له، فنظر إلى أعلى ليجد سلمى تقف مضيئة؛ تمامًا كما كان يرى

الوحي. تنظر إليه بعتب، وهي تشرب من سم المضاجعة، وكانت الغردجية تظهر خلفها. قال لنفسه: لكن سلمى لا تذهب عند الغردجية. التفت كي يسأل صالحًا فلم يجده، ثم التفت إلى سلمى فلم يجدها، ووجد مكانها بيوت قريتهم وهى خاوية.

ولما استيقظ مهدي نادى على أخيه في ذعر حتى أتاه فقال له:

هيا بنا.

لوين نروح؟

أريد سلمى.

كيف يا مطرود العرب؟

إما أن أتزوجها أو يقبضون عليّ.

وركب الأخوان الجمل وفى الطريق حكى مهدي لأخيه ما رأى. قال له: إنه لمتأكد أن سلمى عند الغردجية، لكن حجاجًا لم يصدقه هذه المرة، وقاد الجمل في طريق القرية، ولما وصلا وجدا القرية خالية، تكسرت أبواب البيوت ولا أحد هناك، ركب مهدي الجمل ونادى على أخيه وهدده قائلاً: إنه سيذهب عند الغردجية لو لم يأت معه. كان الحزن يكسر قلب حجاج على ما جرى للقرية لكنه أناخ الجمل وصعد خلف أخيه في صمت.

عندما صار المعسكر على مقربة، عسكر مهدي وحجاج حتى يحل الظلام. لم تمش الشمس متثاقلة مثلما مشت هذا اليوم، ومهدي منتظر يكاد يحركها بناظريه، حتى إذا أطبق الليل، مشى مهدي وحجاج إلى

المعسكر متخفيَيْن وراء الصخور والرمال العالية، حتى إذا وصلا إلى الأسوار اجتهدا حتى يعبرا منها دون أن يشعر بهم الحراس، لكن الحراسة كانت شديدة فلم يستطع إلا حجاج أن يعبر السور ودخل إلى أقرب خيمة، وفى الخارج، شعر أحد أفراد الحراسة بحركة في تلك الخيمة، فذهب إليها لتفتيشها، فاختبأ حجاج فاردًا جسده على الأرض، وجلست عليه النسوة حتى لا يبين، لم يجد الحارس غير أطفال وشيخ كبير في جهة، وفى الجهة الأخرى؛ نسوة قاعدات، حلت إحداهن شعرها، ثم أسرعت بتغطيته؛ عندما أطل الحارس برأسه إلى داخل الخيمة. لم يشعر الحارس أن غريبًا هناك، فالنسوة لا يكشفن شعورهن إلا وسط العائلة، فانصرف على غير ارتياح لأن وجوههم المتقعة تشي بأن شيئًا ما يحدث، لكنه غالب شعوره وتجول في المعسكر بلا هدف. كانت تمتزج داخله كتلة من المشاعر العصية على فهمه، حنين إلى بلاده ورغبة في أن يترك الجيش، ويعمل في مصنع لتصنيع الحاصلات الزراعية في بلده، كانت هذه الهواجس كفيلة أن تأخذ عقله وقدميه بعيدًا عن الخيمة، فجلس حجاج بعد أن قام من رقدته تلك وقال:

مهدي هنا ويبغي سلمى.

- الليلة؟!

- الليلة.

ارتسمت الدهشة على وجوه أهل الخيمة، لكن ملامح الدهشة هذه تحولت في صمت إلى فرحة شديدة. وأخذوا يخططون مع حجاج لدخول

مهدي إلى المعسكر، بينما الشاي يصب في الأكواب.

قال حجاج: وين خيمة المأذون الشيخ رفاعي؟

عندما وصفوها له قال:

وكيف يصل إليها أبا سلمى؟

قال صبي صغير من خيمة بيت حمدان، لخيمة بيت سالم، وإليها يأتي الشيخ رفاعي.

وين خيمة سلمى وأبيها ؟

أجابته الزوجة:

خيمتهم تحت الغردجية.

اندهش حجاج وصمت لحظة وأخذ رشفة من الشاي وقال للصبي: تذهب إلى مهدي وتقول له، أن خيمة سلمى تحت الغردجية.

أنا سأذهب إلى خيمة سالم

قال الأب: وكيف يعقد الشيخ رفاعي القران من غير مهدي؟

قال: أنا وكيل مهدي، وأبو سلمى وكيلها.

ذهب الصبي ليخبر مهدي بمكان خيمة سلمى، وآخر ليخبر أبا سلمى بضرورة ذهابه إلى خيمة القران، وبنت ذهبت إلى الشيخ رفاعي، واتفق الجميع على إشارات صوتية للتنسيق بينهم، وكانت الإشارة تقليد صوت الذئب؛ فهو صوت معهود في هذه المنطقة.

جاء أول عواء ذئب ليتحرك مهدي، ويعبر السور ويتخفى من خيمة إلى خيمة، حتى يرتمي بخيمة الغردجية، كانت أم سلمى تجهز ابنتها ليوم عرسها بالطيب، وتزينها بما هو متاح في هذه الظروف من أدوات الزينة والكحل، الخجل كان بديلاً عن المساحيق يكسو الوجه بحمرة مشرقة.

جلس مهدي ينتظر العروس حتى يكتمل إشراقها، وعندما جاء صوت العواء الثاني عرفوا أن القران قد عقد؛ فخرجت أم سلمى من الخيمة تاركة المكان للعروسين، نظر مهدي في عين سلمى ودمع خفيف يكسوها، فاستدعى ذلك دمعًا خفيفًا كسى وجه الفتى، وما إن عبرت لحظة الدهشة الأولى حتى انطفأت أنوار المعسكر، فتبسم الحبيبان في الظلام، وسمع كل واحد منهما صوت بسمة صامتة، جللت شفاه الآخر لحظة أخرى مرت ومهدي يقترب رويدًا من سلمى، حتى تشابكت أنفاسهما المتسارعة، وما إن شعرا بتجاذب الأنفاس، حتى لمحا ظل حارس يأتي من الخارج إلى خيمتهم، حاملاً مصباحًا في يده، فأطفأت سلمى المصباح الذي عندها، وجلست في ركن قصي حتى لا يرى زينتها، واختفى مهدي خلفها، وعندما وصل إلى باب الخيمة قال: إنها أوامر المعسكر بإطفاء كل المصابيح، لأن هناك ذئابًا في المنطقة.

أجابت سلمى بالموافقة وغرقت في ضحك مكتوم، وعندما رحل الحارس؛ التصقا بجسديهما، وغابا في قبلة أضاءت قلبيهما. في تلك العتمة جلس الناس في خيامهم يتسترون جميعًا على العرس المختلس. نظر حجاج إلى السماء، فرأى الغيوم اقتربت وخشي من هطول المطر

أن يفسد ليلتهما. مرت اللحظات والناس يترقبون ويخافون من المطر؛ فالخيام ليست محكمة ولن يصد قماشها الغليظ ماء المطر. لم يخف الناس على أنفسهم ولا أشيائهم، خافوا جميعًا على ليلة العرس.

البرق بدأ يضئ المكان والرعد يتبعه، وصار المطر وشيكًا لا محالة، وصار قلق الناس ورجاؤهم يتنقل من خيمة إلى خيمة.

أما العروسان فقد غابا عن الوجود؛ فلا رعد يزعجهما ولا ينتبهان إلى البرق، ولما هطل المطر وغرقت الخيمة، وبدأ يتساقط عليهما الماء متسللاً من سقف الخيمة، فرحا وأحسا أن السماء تباركهما. بللت الأمطار فروع الغردجية، وهبطت على قبر العاشقيْن، وبللت شفاه العروسين، وانسابت على جسديهما تجرى على منحنيات الجسدين تغسلهما وتباركهما وتمارس معهما.

استلقت سلمى على ظهرها فاردة جناحيها اللذين كانا ذراعين، خدر جميل يغزو الأعضاء شيئًا فشيئًا ويدغدغ الحواس، العضلات ترتخي وتهدأ، حتى جفون العين ترتخي حينًا، ليبدأ الوعي في الغياب، وتفتح حينًا لتدخل صورة الحبيب إلى الأعماق، وتمتزج مع الوعي الغائب فيكونا كتلة من الغياب، أهم ما فيها هو حضورها.

الحياء يشلّ الأعضاء، وتتجمع الدماء الساخنة عند كل جزء ينحسر الثوب عنه، باب النشوة ينفتح بطيئًا لكنه مثل الدوامة ينادي الغريق حتى يلمس قعره، تسمع سلمى أصواتًا ناعمة تطل من بعيد تسأل: أين أنت الآن يا سلمى؟

فترد أنفاسها بلغة لا حروف فيها تملؤها النبضات: أنا عند سواحل جسدى.

القلب يضرب الدماء خاشعًا، ويكاد ينسحب إلى قرارة مازارها قبل اليوم. والجسد الآخرهناك في الأعلى، لا يلبي للقلب دعاءه. هناك عند حدود الجسد الخارجية يبدو ساخنًا محمومًا وسم المضاجعة في الدماء يتكسر، ويذوب في خلايا جسد سلمى؛ الذي يسمع لغة الجسد الآخر يتحدث بإيقاع متسارع. فهل تسمعين يا سلمى ما يقول؟

"سلمى هذا قبر مدينة تحت فخذيك، غائر كالجرح في الأرض، هذه بشارة التكوين تسطع فيك، وها أنت تتحولين كالأرض، فهزي بجذع الغردجية تساقط عليك نشوة الكون، وهزي بجسد حبيبك عليك يخرج من بينكما شرابًا طهورًا، وسلمي دماؤك ورضابك له، سلمي جلدك وقشرة عينيك، سلمي حنانك، تأخذك الهزة، وما أدراك ما الهزة، هي كالموت، كالحياة، كشيء بينهما أو ككليهما معًا"

انقضت الليلة وودّع مهدي عروسه، وأخبرها أنه ذاهب لأرض الحجاز وسيعود بعد أن تهدأ الأمور. احتضنها وظلا صامتين مدة طويلة، ثم انفصلا باكيْن، وخرج مهدي من الخيمة والمطر يغسل دموعه، عبر السور إلى الخارج، فوجد حجاجًا في انتظاره، وقبل أن يغادرا قلدّ حجاج صوت الذئب للمرة الأخيرة، ليعلم الناس أن مهدي صار خارج الأسوار، فانطلقت الزغاريد من كل الخيام مرة واحدة، وانطلق الأخوان في طريقهما.

16

بقيت سلمى في الأسر بضعة أشهر، تحمل نطفة مهدي في جسدها، والسائل الأزرق لا يفارق مضجعها، تحافظ عليه كما تحافظ على جنينها. تتبدل الأحوال حولها، الأسوار تهدمت، والخيام صارت بيوتًا من جديد، والإنجليز أتوا من حيث لا تدري بأشباح من حديد: ماكينات عالية تبقر بطن الأرض بحثًا عن رفات الأموات وتخرج من أجسادهم سائلاً لزجًا، عندما رأته لأول مرة أجهشت باكية، لأنها اعتقدت أن كل البشر الذين ماتوا اختلطوا معًا في شراب الشيطان هذا. أخرجت سائلها الأزرق من جلبابها وضمته إلى قلبها في شوق مكتوم إلى حبيبها، تحسست بطنها الذي اقترب موعده، وتمتمت في سرها: وبذرتك هنا يا مهدي... في بطني.

وتركت دموعها تسيل ساخنة على خديها، وتنقط قطرات حارة على يديها التي تمسك سم المضاجعة؛ فتهبّ ذكرى مهدي عليها؛ ليتحول

الوجه الباكي ويحمل بسمة ناعمة خرجت من فم الذكرى. الشمس التي كادت تغرب ذكّرتها بحبيبها الذي كان يأتي مع الغروب ليضيء الليل بطلعته. توجهت سلمى ناحية الشمس، وعواطفها تغلي داخلها، والدماء صعدت إلى رأسها حتى توهج خداها.

قالت سلمى إلى الشمس:

"يا شمس خدت محبوبي

هاتيه يا شمس وما تغيبي

لهيبك فتيلة من لهيبي

لو شفت انكساري تشيبي

لو مسيت انتظاري تذوبي

ردّيه يا شمس ردّيه أو غيبيّ"

لكن الشمس غابت و لم تأت بمهدي، ولف الظلام بجناحيه سلمى؛ فعادت تمشي ناحية البيت، لا تكاد ترى الطريق. غير أن جنينها كان مصدر الضوء داخلها.

غـداً

قيل أن سلمى سمعت ذلك الصوت يأتيها من تحتها:

"لما يفاجئك المخاض ويجيئك طلقك الحامي، وينشف ريقك، وتشعرين أنك تبلعين حلقك، لما يحن ثدييك ويأكلانك ويقشعران بألم، وروحك تنقسم وجسدك الواحد يصير جسدين، لما يندفع ماؤك غزيرًا على فرعيك في غفله منك، وتشعرين بدفع لا إرادي وترتعش أطرافك ووجدانك معًا، عندما تخشين أن تلدى ولدًا بلا أب، يمسك يدك وأنت تدفعين الحياة خارجك بكل قواك وقواه، وهو يمسح جبينك المُندّى، كل الأيادي غير يديه سواء، عندما تشعرين أن هذه اللحظة لن تنتهي ويهون عليك جسدك، فتسابقين اللحظات وتصعد روحك إلى طرفيّ جسدك، وتسمعين الآذان يعلو من فوق فرع الغردجية، فالغرباء لا يعرفون عن قبر "مدينة" شيئًا، فتسلق واحد منهم فروعها وأذن في الناس، فهرعوا إليه صاغرين.

لما تشعرين برغبة في الولادة ورغبة لاستبقاء الجنين وكأنه لو ظل داخلك لن تشعري أنه بغير أب، وأن الأب ليس غائبًا في الروح والذكريات، غائبًا وراء صحراء لا يرحم هجيرها أو بحرًا يأكل الرجال، غائبًا وراء وحي لم يرحمه فأغواه وترك حطامه يأكل بعضه بعضًا.

لما تجتمع كل هذه الأشياء لديك، فلا تقنطي ولا تحزني لأنك سلمى.

سلمى التي سمعت في طفولتها:

وقت إيش يابحر تشبع ولا تسطر قلوبنا مواجع

قد إيش يا بحر تاكل   وترمى مع زبدك أرامل

إوعاك تتعلمي لا تتألمي

أوعاك تفكري إن صيد صيدنا

الصيد صيده هو   إوعــاك   إوعــاك"

سمعت سلمى ذلك الصوت يأتيها من تحتها.

المؤلـف في سـطور

محمد رفيـع

قاص وروائي مصري.

في مجال الأدب

- عضو نادي القصة واتحاد الكتّاب وأتيليه القاهرة.
- عضو مؤسس وعضو مجلس إدارة بجمعية المرصد الحضاري للتنمية البشرية والثقافية لدعم الأدب والثقافة في مصر.

صدر له أكثر من مجموعة قصصية هي:

- "بوح الأرصفة"، 2003.
"ابن بحر"، 2005.
- "أبهة الماء"، ط1: 2009. ط2: 2011.

في مجال السيناريو السينمائي

خريج أكاديمية تكنولوجيا السيما للفنون قسم "السيناريو" تتلمذ على يد المخرج الكبير "رأفت الميهي

قام بكتابة العديد من السيناريوهات منها "الحاوي خطف الطبق" و"معجزة" عن قصص للكاتب الكبير "نجيب محفوظ"، و"أسطورة الجفتون" قصة معدة خصيصًا للسينما.

- يحاضر حاليًا في الجمعية المصرية للفن قسم السيناريو.
- له ورشة لتدريس السيناريو بوسط البلد.

في مجال النقد السينمائي

ينشر مقالات نقدية ومقالات عامة في فن السينما في مجلة الهلال الشهرية وغيرها من المجلات والصحف.

البريد الإلكتروني:

mohamed.Rafie@iT-Lands.com

ساحل الغواية

في الصحراء موج أقل

بدا أنهما على استعداد لأن يفترسا أي وحش وهما معًا. ظلا يلعبان في البرية كطفلين، حتى تذكرا أن الموت قادم لهما لا محالة. ولم يبق غير سويعات قليلة من الفرح. فقررا أن ينتصرا للفرح الأخير على الرعب، وحتى على الموت ذاته. خلعا ملابسهما كما خلعهما العالم، ومع كل قطعة يخلعانها ينتصران على القبح، ويستقبلان فرحهما الجسدي، حتى إذا تخلصا من أثقالهما؛ عادا إلى ذاتيهما. تأمل الرجل جسد حبيبته طالعًا كشجرة من الرمال، وهي واقفة على بعد خطوات من قلبه. تلمع في عينيها الدهشة الأخيرة، تحير مهدي متى ينقذهما؟ أيقطع تلك اللحظة عليهما؟ وقال لنفسه: لا لن أفعل. وتنهد تنهيدة كبيرة وأكمل: آه عندما تكون كل انفعالات الإنسان من فرح ودهشة ورغبة هي الأخيرة. آه عندما يدرك الإنسان ميعاد موته. ساعتها يصبح الجسد حارًا لا بحرارة الشمس ولا بحرارة الرغبة ولكن بحرارة الحرية؛ حرية من تحرر من عقدة الموت. آه يا لذة السويعات الأخيرة، آه عندما تفض الجسد وتودعه في الوقت نفسه.

لوحة الغلاف: يحيى البعدي
تصميم الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
Elain Publishing House

6 224007 220719